تجليات الديستوبيا في الرواية المصرية المُعاصرة

"دراسة في سوسيولوجيا الأدب"

د/ ولاء أسعد عبد الجواد عبد الحليم (*)

الملخص:

تناولت الدراسة الراهنة تجليات الديستوبيا (المدينة الفاسدة)، ومظاهرها في روايتى "اليوتوبيا"، و"في ممر الفئران" للكاتب والروائي المصري أحمد خالد توفيق، واعتمدت الدراسة على نظريتي: مُجتمع المخاطر لعالم الاجتماع الألماني "أولريش بيك" ونظرية "الشر السائل" لعالم الاجتماع البولندي "زيمجونت باومان"، ومنهجيًّا اعتمدت الدراسة على تحليل المضمون، وتحليل الخطاب الكيفي للروايات عينة الدراسة. وقد توصلت الدراسة لعدة نتائج أهمها: ظهور العديد من مظاهر "الديستوبيا" في الروايتين. هذا، وقد جسدت الروايتان وجود عالمين: عالم مُتخيل يعيش فيه الأشخاص تُعساء، على الرغم مما يتمتعون به من مظاهر للترف، وعالم يزداد بهِ الفقر والظلم والقتل والمرض...إلخ. كما كشف تحليل النص عن قُدرة الخطاب الروائي على تجسيد مظاهر الديستوبيا المُتمثلة في: حقوق المواطنين المُهدرة، والأزمة التي تعيش فيها المُدن الفاسدة، والتنبؤ بتصور مُستقبلي مُظلم للشعوب العربية، وتلاشي الطبقة الوسطى، ونشوب الصراع بين الصفوة من أبناء طبقة الأثرياء، وأبناء الطبقة الكادحة التي تقطن المناطق الشعبية الفقيرة. هذا، وقد استطاع الكاتب توظيف أحداث الروايتين بما يخدم مضمون السياق الاجتماعي في الخطاب الروائي.

الكلمات المفتاحية:

الديستوبيا، يوتوبيا، في ممر الفئران، أحمد خالد توفيق

(*) مدرس بقسم علم الاجتماع- كلية البنات- جامعة عين شمس.

The Manifestations of Dystopia in Contemporary Egyptian Novels

"A Study in the Sociology of Literature"

Dr. Walaa Asaad Abdel Gawaad Abdel Halim

Abstract:

This study examines the manifestations of dystopia (the corrupt city) in two novels by Egyptian writer and novelist Ahmed Khaled Tawfik: "Utopia" and "In the Rat Corridor." The research draws on two theories: the "Risk Society" by German sociologist Ulrich Beck and "Liquid Evil" by Polish sociologist Zygmunt Bauman. Methodologically, the study employed content analysis and qualitative discourse analysis of the selected novels.

The study reached several key findings, notably the prominent appearance of various dystopian manifestations in both novels. The narratives portray two distinct worlds: an imagined world where individuals are unhappy despite enjoying luxury, and a world increasingly plagued by poverty, injustice, murder, and disease. Textual analysis further revealed the narrative discourse's ability to embody dystopian characteristics such as eroded citizen rights, the crisis facing corrupt cities, a grim future prediction for Arab societies, the vanishing middle class, and the emergence of conflict between the elite wealthy class and the struggling working class residing in impoverished popular areas. The author skillfully utilized the events of both novels to serve the social context within the narrative discourse.

Keywords:

Dystopia, Utopia, In the Rat Corridor, Ahmed Khaled Tawfik

أولًا- مدخل لإشكالية الدراسة وتساؤلاتها:

أصبحنا اليوم نعيش في عصر بات فيه التقدُم العلمي ظاهرة لافتة للنظر، للدرجة التي يُمكن للأديب أن يعكس هذا التقدُم الحضاري في أعماله الأدبية عامة والروائية تحديدًا. هذا ما أظهره أدب الخيال العلمي الذي جمع بين العلم والخيال، وسلط الضوء على كُل ما يُثير قلق الإنسان وطُموحاته، وعالج مخاوفه بعد أن عاين أسباب تلك المخاوف. ويُعد أدب الخيال العلمي نوعًا من الأدب الذي يُعالج التطورات العلمية، والاكتشافات والاختراعات التي يُمكن أن تحَدث في المُستقبل القريب أو البعيد وتداعياتها على حياة البشر، لذا يُطلق عليه "الأدب المُتخيل" أو "الديستوبيا" (ريما الديب، ٢٠٢٢م: ١٢). وبذلك أضحى مُصطلح الديستوبيا Dystopia من المُصطلحات الدارجة في أدب ما بعد الحداثة، وإن أشير إليه في صدر الحداثة، عندما أشار إليه الفيلسوف وعالم الاقتصاد البريطاني "جون ستيوارت ميل" في خطاب برلماني له عام ١٨٦٨م، أكد فيه على أهمية التقدُم أو الحداثة في دفع عجلة التنمية. هذا، وقد تبلور المفهوم في صورته الحالية، مُنذُ النصف الثاني من القرن العشرين، للإشارة إلى "مُجتمع لا ينتمي إلى الحاضر، مُجتمع يُخيم عليه البؤس، ويُصيب سُكانه بالخوف بعد أن تجردوا من آدميتهم نتيجة استشراء الشرور". وقد ظهر مفهوم الديستوبيا في بعض روايات الخيال العلمي دون أن يتم تصنيفها على أُسس ديستوبية (نعيمة علي عبد الجواد، ٢٠٠٩م: ١١١). وسرعان ما انتشر في الأعمال الأدبية والروائية التي لا تنتمي إلى الخيال العلمي.

فالأدب الديستوبي إذًا، ما هو إلا نوع من أدب الخيال الاستشرافي الذي يُصور مُجتمعات مُستقبلية يسودها مظاهر سلبية تتخلل كُل مناشط الحياة؛ فعادةً ما يحكي ذلك النوع من الأدب عن عالم مُتخيل يعيش فيه الأشخاص تُعساء، عالم يزداد بهِ الفقر والظلم والكوارث الطبيعية وغيرها من الشرور التي أشار إليها مُنظرو ما بعد الحداثة. خاصة أن الأدب الديستوبي قد ظهر في ظل سياقات اجتماعية تموج بالتحولات والصراعات الكُبرى، التي بدأت مع الثورتين الصناعية والفرنسية،

وما تمخض عنهُما من تحولات كُبرى في مُختلف مناحي الحياة. يلي ذلك الدمار الذي أحدثته الحربان العالميتان. لقد أدت كُل هذه الأوضاع إلى تأمل الأُدباء والفنانين في الانحطاط الذي وصل إليه العالم، والذي بدوره عزز النظرة التشاؤمية في إنتاجهم الأدبي والفكري. زاد من هذه النظرة التشاؤمية التحولات التي حدثت في العالم نتيجة عولمة الحداثة، أو ما أطلق عليها منظرو علم الاجتماع الحداثة السائلة أو الحداثة المُتأخرة أو ما بعد الحداثة وغيرها من المُسميات التي تعكس حالة الفوضى، واللايقين، واللامعيارية التي تشهدها البشرية نتيجة الثورة التكنولوجية التي أدت إلى دمار العالم، وتحويله من الصلابة إلى السيولة على نحو ما ذهب عالم الاجتماع البولندي "زيجمونت باومان".

ويُمكننا أن نُدلل على مدى انعكاس هذه التحولات على الأدب، بداية من رواية "نحن ١٩٢٠" للأديب الروسي "يفغيني زامياتين"، المُلقب "بالأب الروحي للأدب الديستوبي الحديث"، والذي يُعبر فيه عن غضبه من المسار الذي اتخذته الثورة في روسيا، إلى جانب رواية الكاتب الإنجليزي "جورج أورويل" المعنونة "١٩٨٤" التي نُشرت عام ١٩٤٩م والتي تُعد استشرافًا إلى ما سوف يحدُث في العام ١٩٨٤م. والجدير بالذكر، أن هذه الرواية اختارتها "مجلة تايمز" الأمريكية كونها واحدة من أفضل مئة رواية مكتوبة باللغة الإنجليزية مُنذُ عام ١٩٢٣م وحتى الآن، ورواية "عالم جديد شجاع Brave New World" للكاتب الإنجليزي "ألدوس هسكلي" الذي يصور فيها مُجتمعًا جديدًا، مُستخدمًا فيه هندسة الجينات والاستنساخ للسيطرة على الأفراد. أما رواية "برتقالة بقلب الساعة A Clock Work Orang " للكاتب "أنطوني برجس" الصادرة عام ١٩٨٢م، والتي تُعد واحدة من أهم الأيقونات التي تُركز على القسوة والعُنف المُتبادل بين الشباب. ثم تأتي رواية "فهرنهايت٤٥١" للكاتب الأمريكي "راي برادبري" تصور مُستقبلًا تُحظر فيه الكُتب، ويُمنع اقتناؤها، بل وتحرق إذا وُجدت. بينما تُعد رواية V" for Vendetta" للكاتب الإنجليزي "آلان مور" واحدة من روائع الأدب الديستوبي التي تحكي عن فكرة عُقدة الثأر، والتي تم تحويلها إلى فيلم أُنتج عام ٢٠٠٥م.

تدور أحداث الرواية في فترة مُستقبلية مُتخيلة لما بعد نهاية العالم في بريطانيا.

وعلى **الصعيد العربي**، خطا العديد من الكُتاب العرب خطوات واضحة نحو الأدب الديستوبي، وباتت ثيمة الدستوبيا من الثيمات المُفضلة لدى الكثير منهُم. وتُعد رواية "٢٠٨٤.. حكاية العربي الأخير" للكاتب الجزائري "واسيني الأعرج"، والتي استلهمها من رواية "جورج أورويل". قدم واسيني الأعرج فيها تصورًا عن العالم بعد خمسين عامًا، ورواية "حرب الكلب النائية" للكاتب الفلسطيني "إبراهيم نصر الله"، والتي يرصد فيها خارطة عالم مُستقبلي موحش. ويُمكنني أن أرصد في هذا السياق العديد من الروايات لكُتّاب عرب ومصريين مثل: أحمد خالد توفيق، وأحمد مراد، ومحمد ربيع، وعمرو عبد الحميد، وغيرهم من الكُتاب. وكُل هذا التراث الأدبي يعكس التحولات التي اجتاحتها مُجتمعات العالم أجمع من ناحية، ويتنبأ بما سوف يُحدث في المُستقبل من ناحية أخرى.

ومن هُنا تتبلور إشكالية الدراسة الراهنة في التعرُف على تجليات الديستوبيا في أعمال الأديب المصري أحمد خالد توفيق، وذلك من خلال الإجابة عن التساؤلات التالية:

١. ما العوامل التي عززت ظهور الديستوبيا في الرواية؟

٢. كيف جسد الكاتب الظروف الاجتماعية والسياسية التي عايشتها المُجتمعات العربية عامةً، والمُجتمع المصري تحديدًا في هذه الفترات؟

٣. ما مظاهر الديستوبيا كما تجلت في الروايتين (عينة الدراسة)؟

٤. إلى أي مدى استطاع الكاتب أن يُجسد ملامح المدينة الفاسدة وتأثيرها على الشخصيات في الروايات؟

ثانيًا- أهمية الدراسة:

تكمُن **الأهمية النظرية** للدراسة في كونها مُحاولة لإثراء الدراسات في مجال علم اجتماع الأدب عامة، وأدب الديستوبيا تحديدًا، وخاصة أن جُل الدراسات

في مجال الدراسات الأدبية تنتمي إلى أقسام اللغات. هذا إلى جانب مُحاولة تفسير النص الأدبي في ضوء نظريات ما بعد الحداثة.

تتمثل **الأهمية التطبيقية** فيما يُمكن أن تصل إليه الدراسة من نتائج، قد تُسهم في تقديم صورة واقعية عن طبيعة المُدن ما بعد الحديثة، تلك التي صورها البعض بأنها مدنٌ فاسدة، ومدى انعكاس هذا الواقع على رسم السياسات بشأن هذه المُدن.

ثالثًا- المفاهيم الأساسية:

- الديستوبيا Dystopia:

يعني مفهوم الديستوبيا Dystopia عند الإغريق "المكان السيئ"، وهو بذلك نقيض لمفهوم اليوتوبيا Utopia أي المدينة الفاضلة. ويُشير مفهوم الديستوبيا إلى المكان الذي تنهار فيه الحضارة، وتُصبح الحياة كابوسًا (هشام فلاح، ٢٠١٤م: ٦٨). وينتمي هذا النوع من الأدب لأدب الخيال العلمي، والفانتازيا، وأدب الرعب، وأدب المدينة الفاسدة وغيرها من المظاهر التي تعكس عالم الواقع المرير أو غير المرغوب فِيه، العالم الذي تسود فِيه الفوضى، وليس للخير فيه مكان، عالم يحكُمه الشر المُطلق. ومن أبرز ملامح هذا العالم: الخراب، والقتل، والقمع، والفقر، والمرض. باختصار هو عالم يتجرد فِيه الإنسان من إنسانيته، ويتحول فِيهِ المُجتمع إلى مجموعة من "المسوخ" التي تُناحر بعضها البعض (سامح فايز، ٢٠٢١: ٧٥). وربما يتشابه مفهوم الديستوبيا مع مفهوم Homo Sacar "الإنسان المُستباح" أو "الطريد" أو "المنبوذ" الذي أشار إليه الفيلسوف الإيطالي "جورجيو آغامبين Giorgio Agamben" ذلك الشخص المنفي من المُجتمع الإنساني، شخص ليس له قيمة، أو هو الشخص المُستنزف الذي يُمكن قتله دون عقاب (جورجيو آغامبين، ٢٠١٥م: ٣١).

وبناءً على ما تقدم، يُمكن تعريف الديستوبيا في الخطاب الروائي بأنها: ملامح الفوضى والدمار واليأس التي حولت واقع شخصيات الروايات إلى واقع

مرير، واقع مُنذر بالشؤم كما تنعكس الملامح ذاتها داخل السياق العام للمُجتمع، لتحول العلاقات بين قاطنيه إلى علاقات مريضة.

رابعًا- التُراث البحثي:

بعد الاطلاع على التُراث البحثي ذي الصلة بموضوع الدراسة، وجدتُ وفرة في الدراسات العربية والأجنبية ذات الصلة بتحليل أدب الديستوبيا، وندرة الدراسات المُتعلقة بالديستوبيا في روايات أحمد خالد توفيق، وبذلك تمكنتُ تقسيم هذا التراث البحثي إلى محورين: **المحور الأول:** دراسات تناولت الديستوبيا في الرواية بشكل عام. بينما تناول **المحور الثاني:** الديستوبيا في روايات أحمد خالد توفيق.

المحور الأول: دراسات تناولت الديستوبيا في الرواية:

تناول هذا المحور عددًا من الدراسات التي تناولت مظاهر الديستوبيا في الرواية، جاءت دراسة **(أحمد عبد الرزاق ناصر الحسيني، ٢٠١٥م)** للكشف عن ثنائية "اليوتوبيا والديستوبيا" في ثلاث روايات عراقية: رواية "هواء قليل" للروائي جنان جاسم حلاوي، ورواية "نجمة البتاوين" للروائي شاكر الأنباري، ورواية "وحدها شجرة الرمان" للروائي سليم أنطون. جاء تحليل الروايات الثلاث مُعتمدًا على استخدام المربع السيميائي لغريماس (وهي أداة تحليلية لمعرفة التقابلات في النصوص، ونقاط التقاطع فيها، كما تعتمد أيضًا على وصف الشكل الداخلي لدلالة أي نص؛ أي قدرته على اكتشاف المعاني والدلالات المُستترة في النص، وإن لم تذكرها صراحة). وتوصلت الدراسة إلى نتائج عدة من أهمها: إن اليوتيوبيا تقع في الزمن الخارجي للروايات الثلاث؛ فلم يشهد المُجتمع العراقي حالة اليوتوبيا في زمن حكم الرئيس صدام حسين ولا بعد سقوطه. فالمُجتمع كان عبارة عن سجن كبير لا يستطيع المواطن العراقي الفرار منه، فأبطال الروايات هُم من مواليد حقبة الستينيات؛ أي خلال حُكم الرئيس صدام حسين، وهي بذلك أصبحت خارج اليوتوبيا. أما ما بعد السقوط، فقد تحول المجتمع إلى فوضى ودمار، وكُل تجليات الديستوبيا، والتي حاولت الروايات

الكشف عنها. ونستنتج أيضًا أن المُجتمع أيام صدام حسين - كما تصوره البنية الدلالية في الروايات الثلاث- لم يكن مجتمعًا يوتوبيًّا، بل عاش فيما أطلق عليها الكاتب "اللا حياة"، أي حالة غيبوبة عن كل ما يحدث في العالم الخارجي.

في حين سعت دراسة **(دينا محمد عبده، ٢٠١٧م)** إلى إلقاء الضوء على خصائص الديستوبيا في إبداع الكاتب الروسي "يفغيني زامياتين". وتمثلت عينتها في تحليل رواية "نحن" التي كُتبت بأسلوب ساخر عام ١٩٢٠م. واعتمدت الدراسة على المنهج التحليلي والنقدي من خلال مُناقشة عدد من الموضوعات منها: السيطرة الكاملة على الفرد من خلال استبدال الأسماء، والألقاب بأحرف وأرقام، وتدخل الدولة وتحكمها في الحياة الشخصية للأفراد، بما في ذلك العلاقات الحميمية، كما تناولت أحداث الحرب الأهلية التي حدثت في روسيا (حرب المدن ضد الفرد). وتوصلت الدراسة لعدة نتائج من أبرزها: إن رواية زامياتين تُجسد خصائص وسمات الديستوبيا باعتبارها جنسًا أدبيًا، كما احتوت الرواية على عدد من الإشارات التي تعكس بعض أحداث الحرب الأهلية (حرب المدينة ضد القرية) خاصة في أواخر العشرينيات من القرن الماضي. بينما هدفت دراسة كُل من **(Fiore. Lisa Fasola, Tosi. Laura & Fische. Pascal, 2018)** إلى مناقشة العلاقة بين الجنس والنوع في سلسلتين من روايات الديستوبيا الموجهة للشباب، والروايتان هما: "ألعاب الجوع" لسوزان كولينز، و"هذيان" للورين أوليفر. اعتمدت الدراسة على تحليل مستوى النضج الذي يصل إليه البطل في نهاية الرواية أو السلسلة. وتوصلت الدراسة إلى: أن جميع شخصيات الروايتين كانت تجسيدًا للواقع. كما استطاعت الروايتان تحديد هوية البطلتين. ويمُكن أن نعتبر رواية "ألعاب الجوع" لكولينز رواية تعليمية؛ لأن "كاتنيس" بطلة الرواية، لا تصل إلى مرحلة البلوغ في نهاية السلسلة فحسب؛ بل إنها تظهر أيضًا قدرًا كبيرًا من النضج طوال الثلاثية. وعلى العكس من ذلك، فإن "هذيان" لأوليفر تُعد مثالًا جيدًا للتعبير على رواية التطور؛ حيث ينصب التركيز دائمًا على تطوير "لينا" بطلة الرواية لنفسها، وليس وصولها لمرحلة

البلوغ. في حين استهدفت دراسة **(موفق رياض نواف، ٢٠٢١م)** إلى دراسة الديستوبيا في رواية: "حرب الكلب الثانية" للروائي إبراهيم نصر الله، استخدمت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي. وتوصلت الدراسة إلى أن المُجتمع المُستقبلي يسود فيه: الفوضى، والاستغلال، والانتهازية، والحرب، مما نتج عن ذلك دمار وخراب على المُستويين المادي والمعنوي في حياة الناس، كما أشارت إلى الأسباب الحقيقية لهذا الخراب المادي والروحي الذي استشرى في العالم؛ والذي يعد نتيجة لضياع القيم والمبادئ التي تخلى عنها كثير من الناس، في مُقابل الوصول إلى الثراء الفاحش.

في حين جاءت دراسة **(محروس محمود القللي، ٢٠٢١م)** للتعرف على فساد المُدن وشخصياتها، كما عكستها بعض الروايات العربية والعالمية: رواية "الأيام" لطه حسين ١٩٢٩م، ورواية "الحرافيش" لنجيب محفوظ، "والسائرون نيامًا" لسعد مكاوي، وكُلها روايات عالجت موضوع الأوبئة، من خلال تقديم رؤية تاريخية مُقارنة بعملين روائيين من النصوص العالمية الكلاسيكية التي عالجت الموضوع نفسه. الرواية الأولى: إنجليزية "يوميات عام الطاعون ١٦٦٥" للكاتب الإنجليزي "دانيل ديفو" الصادرة عام ١٧٢٢م، والثانية فرنسية "الفارس على السطح" لجان جينو الصادرة عام ١٩٦٤م. وكشفت الدراسة عن عدة نتائج أهمها: وجود تلازم بين الديستوبيا واليوتوبيا، فخلال النصوص مُجتمعة يلتقي الخير والشر معًا، ويجتمع الجيد والرديء، ولكن الغلبة تكون دائمًا لمن ينشُر الآفات والأوبئة. كما كشفت الدراسة عن وجود فروق في كيفية المُعالجة الأدبية، فالرواية الفرنسية عالجت الوباء بوصفه فكرة رئيسة أسست لديستوبيا طاغية في المدينة الفرنسية. ويُمكن أن تنطبق النتيجة نفسها على الروايات المصرية بدءًا من الأيام لطه حسين، وصولًا إلى السائرين نيامًا لسعد مكاوي. حيث نوقش الوباء باعتباره ستارًا للظلم، وصورًا لمُستقبل مُظلم للعالم في غياب المُقاومة المُنظمة، إلى جانب غياب القيم، وأهمها قيمة العدل.

بينما حاولت دراسة **(Al Disuqui. Diaa, Ibrahim, 2022)** الكشف عن

مفهوم الرواية الديستوبية وعناصرها، من خلال التركيز على مفهوم المرأة الجديدة، ودورها المحوري في مُقاومة الفكر الديستوبي، وذلك من خلال تحليل مُقارن لروايتي: "ثرثرة فوق النيل" لنجيب محفوظ (١٩٦٦م)، "وقصة خادمة" لمارجريت أتوود (١٩٨٦م). ويسعى الباحث، من خلال التحليل المُقارن، لتوضيح مدى نجاح الروايتين في تسجيل السياسات الغاشمة والعنيفة التي تتبناها الأنظمة السياسية في عالم الديستوبيا، كما توضح الدراسة أشكال مُقاومة تلك السياسات. وفي هذا السياق تتبنى الدراسة مفهوم القوة، كما طرحه "ميشيل فوكو"، لتبيان الهدف من الروايات الديستوبية، كونها شاهدًا على السياسات القمعية التي تتبناها بعض الأنظمة السياسية، وفي الوقت ذاته تُعد إنذارًا لخطورة استمرارية تلك السياسات. وتوصلت الدراسة لعدة نتائج أهمها: إن المرأة الجديدة قدمت نموذجًا صارخًا للتمرُد؛ فلم تكتفِ برفض السلطة الأبوية، بل سعت إلى أن تُصبح عضوًا نشطًا في المُجتمع، عضوًا قادرًا على إحداث التغيير الحقيقي، وإجراء إصلاح ملموس.

أما دراسة **(كريمة نوادرية، ٢٠٢٢م)** فقد سعت إلى استقراء صورة المكان الديستوبي في روايتي: "نوار اللوز"، و"ما تبقى من سيرة لخضر حمروش" للروائي الجزائري واسيني الأعرج. تدور أحداث الروايتين في عدد من الأمكنة الفاسدة: كالبارات، والسجون، والمخافر، وغيرها من الأماكن التي فقدت حقها في الانتماء إلى المكان اليوتوبي؛ بسبب امتلائها بالفساد والجريمة، كالمُستشفيات، والمقابر. وتوصلت الدراسة إلى الأهمية التي تكتسبها الأمكنة الديستوبية في بناء المتن الروائي، وقدرتها على التعبير بقوة، وتأثيرها على أزمة الفرد داخل المُجتمع الجزائري، خاصة فيما بعد الاستقلال؛ ويرجع ذلك إلى هيمنة مظاهر جديدة، حملت قيمًا غربية تدعم رسالة التحرير الموقعة بحبر المساواة والعدل.

بينما هدفت دراسة **(Panda.Asit, 2023)** إلى تتبع تطور الديستوبيا من القرن العشرين إلى القرن الحادي والعشرين، والتعرُف على الأفكار التي يُقدمها

هذا التطور في بنية المُجتمع، واعتمدت الدراسة على عدد كبير من الروايات منها: رواية "نحن" المنشورة عام (١٩٢٤م) ليفغيني زامياتين، ورواية "عالم جديد شجاع" المنشورة عام (١٩٣٢م) للكاتب ألدوس هكسلي، ورواية "١٩٨٤م" لجورج أورويل المنشورة عام (١٩٤٩م)، ورواية "فهرنهايت ٤٥١" المنشورة عام (١٩٥٣م) لوراي برادبري، ورواية "هل يحلم الروبوتون بالأغنام الكهربائية؟" المنشورة عام (١٩٦٨م) لفيليب ك. ديك، ورواية "قصة الخادمة" المنشورة عام (١٩٨٥م) لمارغريت أتوود، ورواية "أبناء الرجال" المنشورة عام (١٩٩٢م) لبي.دي. جيمس، ورواية "مثل الزارع" المنشورة عام (١٩٩٣م) لأوكتافيا إي. بتلر، ورواية "استرخِ" المنشورة عام (٢٠٠٧م) لنيل شوسترمان، ورواية "ألعاب الجوع" المنشورة عام (٢٠٠٨م) لسوزان كولينز، ورواية "الدائرة" المنشورة عام (٢٠١٣م) لديف إيجرز، ورواية "المحطة الحادية عشرة" المنشورة عام (٢٠١٤م) لإميلي سانت جون ماندل. توصلت الدراسة إلى عدة نتائج أهمها: إن روايات الديستوبيا في القرن العشرين - في الغالب- تدور حول الشمولية السياسية والإبادة النووية، بينما شهد القرن الحادي والعشرون مجموعة واسعة من الموضوعات التي تعكس التطورات التي حدثت خلال تلك الفترة الزمنية مُتمثلة في: التكنولوجيا، والبيئة، والهوية. فلم تقتصر الروايات على طرح الموضوعات التي فرضها السياق الاجتماعي، والتي كُتبت فيها هذه الروايات، بل أيضًا تغيرت ديناميكيات الشخصية وتفاعلت مع مُتغيرات القرن الحادي والعشرين، حيثُ تميز أبطال الروايات بقدر أكبر من التمكين، والتعقيد الأخلاقي. ويتجلى السياق الثقافي والتكنولوجي للقرن الحادي والعشرين في أدب الديستوبيا، حيث تتناول الروايات موضوعات مثل: الإنترنت، ووسائل التواصل الاجتماعي، والعولمة وتأثيرها على الحياة المعاصرة. بالإضافة إلى ذلك، هناك تركيز ملحوظ على التنوع، والهوية والشمولية في الأدب البائس في القرن الحادي والعشرين.

ومن الدراسات المُهمة التي تندرج تحت هذا المحور أيضًا، الدراسة التي

قام بها كلٌّ من **(رحاب صالح خليل وطلال خليفة سليمان العبيدي، ٢٠٢٣م)** التي اهتمت برصد مظاهر الديستوبيا، وأثرها في تشكيل تقنيات الزمن الروائي. وذلك من خلال تحليل مجموعة من الروايات النسائية العراقية التي صدرت في الحقبة التاريخية من (٢٠٠٣- ٢٠٢٠م). اعتمدت الدراسة على تقنية الاسترجاع لعرض أحداث ماضية حدثت في المُجتمع العراقي. وتوصلت الدراسة إلى عدة نتائج أهمها: جُلّ الاستشرافات الديستوبية تحمل نذير شؤم، كما تؤثر الديستوبيا في تشكل زمن المُستقبل، خاصة إذا كانت الروايات قد أُنتجت وسط العنف، والانكسار، والإحباط واليأس، والخراب وفقدن الأمن والسلم، لإنسان لا يملُك غير ذاكرة مدمرة ونفسية مضطهدة. وقد غابت في الروايات مشاهد السعادة والأمل والتفاؤل، وتم التعبير عن رماد الواقع عبر الإحساس بالفاجعة ورصد الخراب.

بينما اهتمت دراسة **(فريدة جميعان القريناوي، ٢٠٢٣م)** بدراسة تمظهُرات العنُف والديستوبيا في الأدب العربي، من خلال تحليل رواية "وطن من زجاج" للكاتبة الجزائرية ياسمينة الصالح التي ناقشت من خلالها أوضاع إحدى الفترات الحرجة التي شهدتها الجزائر، وهي فترة الأزمة الوطنية التي استمرت عشر سنوات أُزهقت خلالها الكثير من الأرواح، وارتفعت حوادث الاغتيال والخطف، فتحولت الجزائر إلى حرب عصابات، للدرجة التي لم تتمكن الدولة من حماية مواطنيها. ومن هُنا خلصت الدراسة إلى عدة نتائج منها: تمكنت الكاتبة من تصوير الواقع الديستوبي للجزائر بما فيه من مظاهر تُعبر عن حالة العُنف والإرهاب التي غزت الأوطان العربية خلال الفترة الزمنية نفسها، نتيجة لما مرت بِهِ الدول العربية من محن على يد المُستعمر، ثم على يد أبنائها؛ ليتحول الوطن من روضة جنة إلى حفرة من نار، تآكل من يدخُلها أو يقترب منها. كما يُعاني الإنسان القاطن في مدينة الديستوبيا من الخوف والقلق، فلا يرى أن هُناك أملا للحظات جيدة، وأوقات أفضل، فهو يُعاني من التيه والتشظي، وعدم وجود قيمة له بسبب البطالة والفقر والفساد. كما أن الزمن في المدينة الفاسدة يرمز إلى حاضر مأساوي، ومستقبل غير واضح

لا يشي بإمكانية العيش، لذا كثرت تفاصيل الحنين إلى الماضي لدى شخصيات الرواية. في حين اهتمت دراسة **(منى حندقها أحمد محمود، ٢٠٢٣م)** بالتعرف على الدعامات التي استند إليها الكاتب الهندي "ابن صفي" في التعبير عن رفضه واحتجاجه على الحُكم العسكري في باكستان؛ تلك الفترة التي امتلأت بالمؤامرات، والتجسُس، والفوضى، وفقدان الأمن، والخوف من المُستقبل، ونتيجة لهذه البيئة الديستوبية التي عاش فيها "ابن صفي" كتب روايته "وبائي بيجان"، واعتمدت الباحثة في هذه الدراسة على المنهج التكاملي لتحليل رواية "وبائي بيجان"؛ ليصف الظواهر ويقوم بتحليلها في ضوء معطيات الواقع داخل النسق السردي وخارجه. وتوصلت الدراسة إلى عدة نتائج أهمها: إبراز ملامح الديستوبيا في سرد الرواية من خلال عدة جوانب منها: الفساد الأخلاقي، وانتشار الفوضى والموت، وتسلُط القوى الاستعمارية وتحول المدينة وضجيجها إلى أشباح مهجورة. بالإضافة إلى ذلك، عالج (ابن صفي) كارثة الوباء في نصوص الرواية من خلال الاستناد إلى عدة ركائز شكلت معالم الديستوبيا فيها، وأبرزها وجود حكومات وكيانات مُتسلطة على دول يُساعدها بعض الخونة من أبناء البلاد، وإن الصراع من تلك الكيانات يفتقر إلى الرؤية المعرفية الواضحة والمُتكاملة التي يُمكن أن تُساعد على الخروج من دائرة القهر. كما أثبتت الدراسة أن الرواية قدمت أنموذجًا لمُجتمع لا يمتلك الأدوات المعرفية التي من المُمكن أن تكون باعثًا لأي مواجهة أو مُقاومة، على الرغم من بروز أيديولوجية رفض سياسات القوى الدولية المتسلطة.

ومثلما تناولت دراسة **(فريدة جميعان القريناوي، ٢٠٢٣م)** الوضع في الجزائر، تناولت أيضًا دراسة (**راوية شاوي، ٢٠٢٤**م) الموضوع نفسه من خلال قراءة رواية "اختلاط المواسم أو "وليمة القتل الكبرى" للكاتب الجزائري بشير مفتي، وذلك من أجل اكتشاف العوالم الخفية فيها، والتي كانت نتيجة للوباء الفكري في المُجتمع الجزائري من جرَّاء العشرية السوداء. توصلت الدراسة لعدة نتائج أهمها: إن الأدب الديستوبي يستوحى من الواقع مأساوية الحاضر من دون تجاهل للماضي مع التحذير من الحنين المُفرط للماضي الدموي، وإن خلق

عوالم ديستوبية في الرواية عكس درجة الوعي بمأساوية المأساة، أو مأساوية المكان. لم يكُن أمام القاتل الذي يُمكن أن نطلق عليه اسم "البطل الأسطوري"، إلا أن يتعامل مع مأساته النفسية والوجودية، والتعامل مع الحاضر على أنه زمن فاسد، وأن يتبنى عوضًا عنه زمنًا فاضلًا يوتوبيا.

المحور الثاني- الديستوبيا في روايات أحمد خالد توفيق:

ضم هذا المحور عددًا قليلًا من الدراسات حول الديستوبيا في روايات أحمد خالد توفيق، كدراسة **(أسماء إبراهيم حسين، ٢٠٢٠م)** التي تهدف إلى دراسة الديستوبيا كونها نمطًا أدبيًا ناشئًا حديثًا في الأدب العربي. توقفت الباحثة عند تعريفه، وأهم مظاهره، وأوجه الاشتراك بينه وبين نظيره الغربي، مُستعينة في ذلك بالعديد من روايات الديستوبيا الغربية والعربية مثل: روايات جورج أورويل وألدوس هسكلي، كما قامت بتحليل أربع روايات مصرية تنتمي إلى النوع الأدبي نفسه، وهي: رواية "يوتوبيا"(٢٠٠٨م)، ورواية "في ممر الفئران" (٢٠١٦م) وكلتاهُما للكاتب أحمد خالد توفيق، ورواية "عطارد" (٢٠١٥م) للكاتب محمد ربيع، ورواية "قواعد جارتين" بجزءيها، الجزء الأول "المنشور" (٢٠١٨م)، والجزء الثاني "المنشور" (٢٠١٩م) للكاتب عمرو عبد الحميد. وتوصلت الدراسة إلى عدة نتائج أهمها: إن للغة في الرواية الديستوبية دورين رئيسين، حيث استخدمت اللغة كونها وسيلة للتعبير عن العوالم الديستوبية المُختلفة بمظاهرها المُتعددة، كما استخدمت اللغة كونها شخصية رئيسة فعالة في الخطاب السياسي. وذلك للسيطرة، والتحكم، والتنميط، وإدماج الناس في الأنظمة الشمولية المُختلفة، لذا فقد اتكأت على المنطق غير الصوري الذي يعتمد في الأساس على المُغالطات الحجاجية بأنواعها؛ حيث لم يكُن الخطاب السياسي الشمولي الوارد في الروايات قائمًا على الأفعال اللغوية الطبيعية، وإنما قائم على الانحراف عن هذه القواعد.

في حين حاولت دراسة **(هند بنت يزيد العمري، ٢٠٢١م)** القيام بإجراء

دراسة مقارنة بين الديستوبيا في روايات أحمد خالد توفيق وجورج أورويل، اعتمدت الدراسة على تحليل رواية "١٩٨٤" لجورج أورويل، وروايتي "يوتوبيا" و"في ممر الفئران" لأحمد خالد توفيق، فتناولت مدخلًا عن مفهوم البناء السردي لرواية الخيال العلمي، وذلك من أجل التعرف على أوجه التشابه والاختلاف بين البناء السردي لأعمال كِلا الكاتبين. وتوصلت الدراسة إلى عدة نتائج أهمها: تأثر أحمد خالد توفيق بجورج أوريل في الجانب السردي، بدءًا من شخصية الأخ الأكبر التي تُمثل الشخصية الأبرز عند جورج أورويل، التي ظهرت عند أحمد خالد توفيق في شخصية القومندان، بالإضافة إلى الصراع بين فئتين مختلفتين أو طبقتين مُتغايرتين، إحداهما تُمثل السلطة والقوة والديكتاتورية، والأخرى تُمثل الضعف والمُقاومة أو الاستسلام. كما تأثر أحمد خالد توفيق بجورج أورويل فيما يتعلق بموضوع الخيانة (خيانة الصديق)، وخداعه واستدراجه لغاية سياسية أو اجتماعية. وأخيرًا تأثر أحمد خالد توفيق بجورج أورويل في اختيار مُدن وأمكنة واقعية تُمثل جانبًا ثقافيًا ومُهمًا لدى الكاتبين (القاهرة والساحل الشمالي وشبرا)، كما لدى "جورج أورويل" حيث الأحداث تدور في العاصمة لندن.

كما ركزت دراسة (**مجدولين علي عبد الرحمن، ٢٠٢٢م**) على تقديم الرؤية السردية في رواية أحمد خالد توفيق، كونها رواية ديستوبية، تسعى إلى إلقاء الضوء على القضايا الاجتماعية والظروف السياسية التي مرت بها الدول العربية من جهة، واهتمام الكاتب وأيديولوجيته التي تهتم بالمُجتمع ومسؤوليته تجاه قضاياه من جهة أخرى. هذا بالإضافة، إلى التعرف على ملامح المدينة الفاسدة التي انعكست على ملامح البشر. وقد جاء ذلك من خلال تحليل رواية في ممر الفئران تحليلًا وصفيًا. وقد توصلت الدراسة إلى عدة نتائج من أهمها: توظيف الكاتب رؤيته السردية بما يُفيد النص ويخدم الفكرة، ويخرج بالعبرة المُناسبة. وذلك من خلال تسلسل الأحداث تسلسلًا زمنيًا بما يخدم سياق النص، هذا إلى جانب الاعتماد على توافر عناصر منها: بساطة النص، وتحفيز الخيال، واستخدام الأسلوب الأدبي الشيق حتى يتعايش القارئ مع الروائي.

بينما اهتمت دراسة **(شيماء محمود عواض خليفة، ٢٠٢٣م)** برصد جماليات التشكيل السيميائي والمعرفي في ديستوبيا "أحمد خالد توفيق"، ورصد المُناخ الديستوبي الذي يحياه البشر. انطلقت الدراسة من مُعطيات النقد المعرفي وعلم العلامات (السيمياء) لقراءة رواية "في ممر الفئران". وتوصلت الدراسة لعدة نتائج أهمها: إن الرواية سارت في خطين مُتزامنين لمدينة واقعية وأخرى مدينة مُتخيلة، تسود كُلًّا منهُما ملامح الديستوبيا. بدأت الرواية من المدينة الواقعية مع بطل الرواية (الشرقاوي) بعرض عدد من التساؤلات الوجودية التي تنتاب الإنسان في الكثير من مراحل حياته، وهي بذلك تعكس التراجيديا الإنسانية السوداء، والحزينة المقهورة، تذهب الباحثة بأن الرواية تُعد من روايات التناقضات والمُفارقات والدهشة.

تعليق عام على التراث البحثي:

وفي سبيل التحضير لهذه الدراسة، كان عليّ أن أتوجه لعدد من الدراسات التي تندرج تحت مفهوم الديستوبيا، أو الأدب الفاسد، أو المُدن الفاسدة عامة، والدراسات التي تناولت بالتحليل أدب أحمد خالد توفيق بالبحث والدراسة، كونه أهم الكُتاب الذين تناولوا هذا النوع من الأدب، وبالفعل وجدت عددًا كبيرًا من الدراسات تمكنت من عرضها في محورين.

فيما يتعلق بالدراسات التي تناولت دراسة الديستوبيا، وجدت أن هذه الدراسات اختلفت فيما يتعلق بالمناهج التي استخدمتها؛ فقد استخدمت دراسة (هند بنت يزيد العمري، ٢٠٢١م) المنهج المُقارن، في حين أن دراستى (مجدولين علي عبد الرحمن، ٢٠٢٢م)، و(موفق رياض نواف، ٢٠٢١م) اعتمدتا على المنهج الوصفي التحليلي، كما جمعت دراسة (محروس محمود القللي، ٢٠٢١م) بين الرؤى التاريخية والنقدية والثقافية في المُقارنة بين نصوص الرواية المصرية التي عالجت موضوع الوباء. بينما زاوجت دراسة (دينا محمد عبده، ٢٠١٧م) بين المنهجين التحليلي والنقدي.

كما وجدت أن مُعظم الدراسات التي تناولت دراسة أحمد خالد توفيق، تهتم جُلها إما بالبناء السردي لرواية الخيال العلمي، أو التعرُف على نقاط التلاقي والاختلاف بين روايات أحمد خالد توفيق، وعدد من الكُتاب المُهتمين بكتابة روايات عن الخيال العملي أو الديستوبيا، ومنها ما ركزت على دور اللغة كوسيلة في التعبير عن عوالم ديستوبية مُختلفة بمظاهرها المُتعددة، أو دور اللغة كوسيلة في التحكُم في الأنظمة الشمولية المُختلفة. كما تمت تلك الدراسات في مجالات عدة منها: (الأدبية واللغوية)، ولكنها بعيدة عن الدراسة الاجتماعية للأدب.

ولهذا جاءت الدراسة الراهنة لسد الفجوة البحثية في هذا الصدد، وخاصة في ظل نُدرة الدراسات التي تناولت الديستوبيا ومظاهرها، سواء في نطاق علم الاجتماع بصفة عامة، وعلم اجتماع الأدب على وجه التحديد. وهذا ما دفعني لقراءة الظاهرة وتحليلها في ضوء سياقها الاجتماعي والفكري والإنساني؛ وذلك من أجل التعرُف على المُتغيرات التي لحقت بالمُجتمع المصري في الآونة الأخيرة، مما ساعد في ظهور نوع من الأدب أُطلق عليه الأدب الديستوبي.

خامسًا- التوجه النظري للدراسة:

وقع اختيار الباحثة على نظريتي: "مُجتمع المخاطر العالمي" لعالم الاجتماع الألماني "أولريش بيك Ulrich Beck"، ونظرية "الحداثة السائلة" لعالم الاجتماع البولندي "زيجمونت باومان Zygmunt Bauman" نظرًا لتركيزهُما على: الأخطار الاجتماعية والنفسية التي اجتاحت العالم جرَّاء التحولات الكبرى التي أحدثتها العولمة، أو ما يُطلق عليها أولريش بيك "مُجتمع المخاطر" ويُطلق عليه باومان "الحداثة السائلة"، تلك الحداثة التي جاءت بمفاهيم الديستوبيا على العالم، وخاصة ما يتعلق بمفهوم "الشر السائل"، والذي خصص له "باومان" كتابًا مُنفردًا ضمن سلسلة السوائل الثمانية (الحداثة السائلة، والحياة السائلة، والحُب السائل، والأزمنة السائلة، والخوف السائل، والمُراقبة السائلة، والشر السائل، وأخيرًا الأخلاق في عصر الحداثة السائلة).

١. نظرية مجُتمع المخاطر Risk Society:

يُشير مُجتمع المخاطر الذي صاغه عالم الاجتماع الألماني **"أولريش بيك Ulrich Beck"** (١٩٤٤-٢٠١٥م)، في كتاب له يحمل العنوان نفسه صدر في ثمانينيات القرن العشرين تحديدًا عام ١٩٨٦م، إلى العولمة أو ما أطلق عليها "الحداثة المُتأخرة" أو الحداثة العالمية أو عولمة الحداثة، وغيرها من المُسميات التي تعكس المخاطر والكوارث الطبيعية والاجتماعية. تدور النظرية حول ثلاث فرضيات أساسية، وهي: العولمة، والصراع، والفردانية. فتُشير **فرضية العولمة**، إلى أن الكوارث المُرتبطة بمُجتمع المخاطر، إنما هي مخاطر للحداثة المُتقدمة المتأصلة في نزعة العولمة. أما عن **فرضية الصراع**، فتُشير إلى أن الصراع الذي يحدُث في ظل مُجتمع المخاطر يختلف عن الصراع الذي يحدث في المُجتمع الطبقي، وذلك من حيث التحالفات التي يستند إليها الصراع؛ فالصراع الدائر في مُجتمع المخاطر لا يعتمد على نُدرة السلع، كما هو في المُجتمع الطبقي، إنما هو مُرتبط بالصراع بين الإنسان والمخاطر المُحيطة به. وقد أفرد "أولريش بيك" **لظاهرة الفردانية**، ثلاثة أبعاد هي كالتالي: **أولًا**، تفكيك الروابط التقليدية والانتماء الطبقي. **ثانيًا:** الافتقار للأمان التقليدي المُتمثل في: العقيدة، والقيم، والمعايير المُنظمة للسلوك الإنساني. **وأخيرًا**، ظهور نمط جديد في الإلزام الاجتماعي (Uwe Engel and Hermann Strasser, 1998: 92)، ومثلما قدم "أولريش بيك" لمُجتمع المخاطر ثلاث فرضيات، رسم أيضًا ملامحه من خلال أربعة تصورات: **أولها:** إن الفقر لم يعُد سمة مُلازمة للطبقة العاملة. فكثير من الناس يعيشون الآن فيه، وخاصة الشباب من الطبقة الوسطى التي تلقت تعليمًا عاليًا. **ثانيًا**، إن عالم الحداثة الثانية هو عالم تجاوز المُتناقضات على نحو تتجاوز فيها فئات اجتماعية مُتناقضة. **ثالثها:** إن حركات التغيير الكبيرة لا تتخذ من الطبقة مُنطلقًا لها. **رابعها:** إن اللامساواة الاجتماعية تخطت الحدود، ولم تعُد الرؤية العلمية المقيدة بالحدود القومية قادرة على فهم أبعاد هذه القضية (Beck Ulrich,2016: 262-263).

وبما أن الخطر يتمتع بـ "القوة المُدمرة للحرب" نفسها، فلُغة الخطر التي يتحدث عنها "أولريش بيك" هي لُغة مُعدية وقادرة على تغيير شكل عدم المُساواة الاجتماعية. فالأزمة الاجتماعية قائمة على تسلسُل هرمي، كما أن الخطر الجديد هو خطر يُصيب الأغنياء والأقوياء، وتُصبح هزته واضحة في المجالات كافة، حيث تنهار الأسواق، ولا تتمكن النُظم القانونية من إدراك الحقائق وتوجيه الاتهامات للحكومات. كما يُحدد الخوف الإحساس بالحياة، ويُصبح الأمن والحُرية والمُساواة المراكز المُتقدمة من حيث الأولوية على مقياس تدرُج القيم، مما يؤدي إلى تغليظ القوانين وزيادة حدتها. وعلى الرغم من كُل المآسي التي يُعاني منها العالم يبدو عالمًا مثاليًا، فهو لا يزال خاليًا من الإرهاب (أولريش بيك، ٢٠١٣: ٣٠)، وبذلك يكون قد اتفق مع عالم اجتماع البريطاني **"أنتوني جيدنز"** (١٩٣٨م) صاحب كتاب "الطريق الثالث تجديد الديمُقراطية الاجتماعية" مع "أولريش بيك" في أن المخاطر ما هي إلا مُجازفات يتم تقويمها في إطار علاقتها باحتمالات المُستقبلية، ويعدها بمثابة القوة الدافعة للمُجتمع الذي يصر على التغير، والذي يُريد أن يُحدد مُستقبله، ولا يتركه للدين، أو التقاليد، أو قوى الطبيعة (عبد السلام نوير، ٢٠٢٣م: ٢١).

وبما أن مُجتمع اليوم أصبح يُعاني من مُشكلات واقعيّة ومن أخطار محتملة، ذهب الأدباء إلى كتابة نصوص مُغايرة وغير مُعتادة، وخاصة الروائية منها، كونها بنية مليئة بالتناقضات والصراعات التي تُعبر في مُجملها عن بعض آراء الشخصيات الروائية التي تعكس واقعًا ملموسًا. والديستوبيا نفسها هي صفة للعالم الفاسد الذي نعيشه، العالم الزائف، عالم المخاطر بما فيه من سيولة.

٢. نظرية الحداثة السائلة Liquid Modernity:

ترجع فكرة الشر السائل إلى سلسلة السيولة التي تحدث عنها عالم الاجتماع البولندى **"زيجمونت باومان Zygmunt Bauman"** (١٩٢٥-٢٠١٧م)، والتي بدأها بكتابة "الحداثة السائلة" الذي يوضح فيه كيف تحول العالم من حالة الصلابة

إلى حالة السيولة. واهتم فيه بالحديث عن النظرة الإنسانية الفلسفية للشر بالعموم، وكيف ظهرت رؤيتان مُتعارضتان لتفسير الشر وتبريره: **الرؤية الأولى**، وهي رؤية دينية ترتبط بالنظرة الدينية المسيحية، والتي تذهب بأن الشر في الحياة الدُنيا مُجرد نقيصة أو خطأ، يُمكن الاستغناء عنه والتغلب عليه. أما **وجهة النظر الأخرى**، فهي وجهة النظر "المانوية"، نسبة إلى الحكيم الفارسي "ماني" الذي يرى أن كُلًا من الخير والشر يُمثلان واقعين مُتوازيين ومُتصارعين على الدوام. وبهذا ينتقل "باومان" إلى العالم المُعاصر، ويُفسر ما يقصده بالشر السائل (زيجمونت باومان وليونيداس دونسكيس، ٢٠١٨م: ١١). فيرى "باومان" أن العصر الذي نحياه يتصف بالفوضى والتغيرات غير المسبوقة، إلى الحد الذي يُمكن أن نبتعد عن مرحلة الحداثة الصلبة إلى مرحلة الحداثة السائلة Liquide Modernity، ومن ثم فهي ليست حداثة أو ما بعد حداثة، إنما هي حداثة سائلة. ترتكز فكرة الحداثة السائلة على طبيعية الحياة المؤثرة على الحياة الإنسانية، في مُقابل الطبيعة الصلبة التي كانت تتسم بها الحداثة، فالحداثة لم تُحقق ثقة الإنسان في نفسه بعد وضع اليقين الديني والتقاليد في هامش الحياة الخاصة، وفرض منظومة المنطق المادي، بل انتهى الأمر إلى حالة من الغموض السائد بشأن أهم القضايا، مما زاد الخوف عند الأفراد، كما أن تغيير الأحوال وفقدان المكانة في ظل العولمة ذات التحولات السريعة المُتلاحقة أدى إلى نمو الشر السائل على حد تعبير باومان (زيجمونت باومان، ٢٠١٦م: ١١). ويُقصد "باومان" بأن الشر السائل، مثله مثل كُل السوائل، يتمتع بقُدرة رهيبة على الالتفاف على العوائق التي قد تظهر أو قد تعترض طريقة، فهو مثل كُل السوائل، يتسرب إلى هذه العوائق ويُرطبها وينقعها، وغالبًا ما يعمل على تآكلها وإذابتها، ثم يمتص المادة المُذابة ليزداد قوة إلى قوته الأصلية. وهذه القوة تؤدي إلى توغل الشر في نسيج الحياة اليومية، وعندما يجري تحديده، فإنه يجعل كل الصور البديلة غير معقولة، بل وغير حقيقية، فالسم القاتل يصور نفسه بصورة مُخادعة على أنه ترياق مُنقذ للحياة من شقاء الحياة (زيجمونت باومان وليونيداس دونسكيس، ٢٠١٨م: ٢٠-٢١).

يؤكد "باومان" بأن: "الشر السائل" موجود في جميع مناشط الحياة: "إننا نعيش في عصر الخوف والسلبية والأخبار السيئة، فلا سوق للأخبار السارة؛ وخاصة إنه لم يوجد من يهتم بها (وإن كانت قصص الكوارث الكبرى والتدمير الشامل الزاخر بالابتهاج والمغامرة شيئًا مُختلفًا تمامًا). وهذا ما يؤدي إلى الانتشار الشامل للذعر، وصناعة الخوف والأخبار العاجلة التي تعتمد على تعليقات مُتباينة إلى حدٍّ كبير، ومُتناقضة في الغالب، وعلى الرغم من أن بعض التعليقات قد تكون ثاقبة ومنطقية أحيانًا؛ إلا أن أغلبها تكون هيستيرية وسوداوية. فدائمًا ما يرتدي الشر السائل ثوب الخير والحب، بعكس ما يُمكن أن نسميه "بالشر الصلب" القائم على رؤية اجتماعية ترى الأمور من خلال لونين الأبيض والأسود، حيث يمكننا تحديد ماهية الشر في واقعنا الاجتماعي والسياسي. بل إن الشر السائل يستعرض نفسه كأنه تقدم على الحياة المحايدة والمتجردة من الأهواء، وكأنه أيضًا السرعة غير المسبوقة للحياة والتغير الاجتماعي، بما ينطوي عليه من نسيان وفقدان للذاكرة الأخلاقية. كما أن الشر السائل يرتدي عباءة غياب الفضائل وامتناعها. وبناءً عليه، يُصبح المواطن مُستهلكًا، ويخفي الحياد القيمي حقيقة الانسحاب (زيجمونت باومان وليونيداس دونسكيس، ٢٠١٨م: ٢٥) .

ويُحاول "باومان" أن يُقرب فكرته إلى القراء، عندما يستشهد بما كتبه الروائي الشهير البريطاني "جورج أوريل" في روايته ذائعة الصيت "١٩٨٤م"، والتي ظهر فيها الشر مُتجسدًا في السلطة الديكتاتورية، والتي قدمت نفسها إلى الجماهير تحت مُسمى الأخ الأكبر، وذلك لإظهار حُبها لهُم، ولكسب تعاطفهُم وودهم. وأكد على أن الشر لن يكون واضحًا ولا بديهيًا بعد اليوم، فعمليات القمع السياسي الخفيف، والانتهاك الخفيف لحقوق الإنسان. ونحن اليوم أصبحنا نعيش تحت حُكم العولمة والتكنولوجيا المُتطورة، نعيش مع شكل جديد وخطير من أشكال الشر وهو الشر السائل، شر غير مُحدد المعالم، شر سائل مُذاب يتشكل كُل حين بشكل مُختلف، وهو شر ليس له بديل يتدخل في كُل مُسميات الحياة وتفاصيلها، والخطورة الأكبر أن الشر السائل يُسوّق على أنه خير، فأنت لا

تشعر به، ولكنه يُحيط بك من كُل جانب، وكما يُعبر "زيجمونت باومان" أن الشر السائل أصبح يستخدم النزعة الشمولية الناعمة في إغواء الناس، فيُصبح الشر غير محسوس لا يُمكن السيطرة عليه" (زيجمونت باومان وليونيداس دونسكيس، ٢٠١٨م: ٢٠).

وبناءً على ما تقدم من عرض لبعض آراء كُل من "أولريش بيك، وزيجمونت باومان" عن مُجتمع المخاطر والشر السائل، يُمكن استخلاص بعض الموجهات النظرية للدراسة الراهنة فيما يلي:

- يرتكز "باومان" إلى أيديولوجيا السيولة، بأنها تتزامن مع نظام العولمة، فأصبح العالم بلا حدود زمانية ولا مكانية، وتُحاول الدراسة الراهنة الكشف عن مدى قُدرة الروايات عينة الدراسة في التعبير عن تلك التحولات.
- يُمكن النظر إلى الرواية كونها الفن الأكثر تعبيرًا عن تحولات المُجتمع وظواهره الاجتماعية المُختلفة؛ ووفقًا لنظرية "أولريش بيك" مُجتمع المخاطر، تُعد الرواية بنية معرفية يُعاد إنتاجها في صورة عمل أدبي، يعكس بعض المخاطر التي يُمكن أن يتعرض لها أبناء المُجتمع بصورة واقعية. فمن خلال الأفعال والمُمارسات التي ذُكرت في الروايات يتنبأ الكاتب بمُستقبل مرير يسوده الفقر والظلم والمرض.
- كما يُمكن من خلال تطبيق آراء "زيجمونت باومان" النظرية داخل النص الروائي؛ حيث تُؤثر الحياة الفاسدة على مصائر الشخصيات الروائية، واستئثار فئة بعينها في المُجتمع بأنواع المُتع والترف كافة، وتمنع منها فئة بعينها، واكتشاف المخاطر التي تتعرض لها الشخصيات في النهاية، والشر الذي يسود العالم فيما بعد، ومن ثم معرفة كيف يُقدم النص بنية دالة لمظاهر الديستوبيا داخل النص الروائي وخارجه.

سابعًا- الإجراءات المنهجية للدراسة:

١. نوع الدراسة ومنهجها:

تُعد هذه الدراسة من الدراسات الوصفية التحليلية؛ حيثُ تعتمد على تحليل عملين روائيين للكاتب أحمد خالد توفيق (اليوتوبيا، وفي ممر الفئران) تحليلًا كيفيًّا في ضوء الإطار النظري المُشار إليه آنفًا، وذلك بهدف التعرف على مظاهر الديستوبيا، ومدى تأثيرها على مصائر الشخصيات الروائية، ومدى تأثر الكاتب بالواقع الاجتماعي المَعِيش، ومدى انعكاس ذلك في الخطاب الروائي له؛ وذلك من خلال توثيق الواقع والأحداث الجارية فترة كتابة الأعمال الروائية، وإن كان بعضها مُتخيلًا، استخدمه الكاتب في الإشارة لبعض الإسقاطات، والتنبؤ بما سوف يحدُث في المُستقبل القريب، اعتمادًا على المقولات النظرية لكُل من "أولريش بيك" و"زيجمونت باومان".

٢. عينة الدراسة ومبررات اختيارها:

وجدت الباحثة عددًا كبيرًا من الروايات التي تحمل مظاهر "الديستوبيا"، في فترات تاريخية مُختلفة، والتي تم دراستها وتحليلها تحليلًا نقديًّا، بعضها باللغة العربية، والبعض الآخر باللغة الأجنبية. والجدير بالذكر، أنها دراسات حديثة تتسق مع ما يشهده العالم من تغيرات. وقد اخترت روايتين لأحمد خالد توفيق؛ باعتباره رائد الرواية الديستوبية في مصر، الرواية الأولى هي "اليوتوبيا" الصادرة عام ٢٠٠٨م، والتي تُرجمت لعدة لغات، واعتمدت في هذه الدراسة على الطبعة رقم ١٩ الصادرة عن دار الشروق. والثانية هي: رواية "في ممر الفئران" الصادرة عام ٢٠١٦م عن دار الكرمة، وذلك للمبررات التالية:

- تُعد الروايتان من الروايات التي تتجلى فيها مظاهر الديستوبيا؛ كونهُما روايتين استشرافيتين تلامسان الواقع الاجتماعي والسياسي في الدول العربية بصفة عامة، والمُجتمع المصري على وجه التحديد.
- عبرت الروايتان عن التغيرات التي حدثت بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م؛ مما أدى إلى الهروب إلى الواقع اليوتوبي الذي كان الشباب يحلمون به.

- صنفت الروايتان الشخصيات إلى فئتين: ففي رواية "اليوتوبيا": اليوتوبيون الأغنياء وأبناء الأغيار الفقراء، وفي رواية "في ممر الفئران "النورانيون" في مُقابل الذين يعيشون في الظلام.

٣. أدوات وطرق جمع البيانات:

اعتمدت الدراسة على التحليل الكيفي للبيانات مُعتمدة على طريقتي تحليل الخطاب وتحليل المضمون. وجاء اختيار هاتين الطريقتين كونهُما الأنسب للتحليل، حيث يعتمد تحليل الخطاب على الربط بين النص والسياق الاجتماعي الذي أُنتج فيه، بينما يعتمد تحليل المضمون على التحليل الداخلي للنص الأدبي، وبهذا يُعد كلاهُما مُكملًا للآخر.

٤. مصادر جمع البيانات:

اعتمدت الدراسة على مصدرين أساسيين لجمع البيانات:

أ. **مصادر أولية:** وهي النصوص الأصلية للروايتين: رواية "يوتوبيا" الطبعة التاسعة عشرة ٢٠٢٣م، الصادرة عن دار الشروق، ورواية "في ممر الفئران" الطبعة الأولى ٢٠١٦م، الصادرة عن دار الكرمة.

ب. **مصادر ثانوية**: مُتمثلة في التراث البحثي المُرتبط بموضوع الدراسة، والذي أسهم في صياغة إشكاليتها، وتحديد مفاهيمها الأساسية، ووضع مؤشرات للتعريف الإجرائي لمفهوم الديستوبيا. هذا بالإضافة إلى الاعتماد على بعض المصادر حول الفترات التاريخية التي كُتبت فيها الأعمال الروائية، وحول مؤلف الروايتين.

٥-أساليب التحليل والتفسير:

اعتمدت الدراسة على التحليل الكيفي للأعمال الروائية (عينة الدراسة)، وقد أجري **التحليل** في ضوء مظاهر الديستوبيا التي تضمنتها الروايات؛ وتم ذلك من خلال مرحلتين:

أ. التحليل على مستوى **الوحدات الصغرى** (التحليل الداخلي للنصوص)؛ وذلك من خلال القراءة المُتأنية للروايات، وكانت هذه المرحلة بمعزل عن التأثيرات الخارجية.

ب. أما التحليل على مستوى **الوحدات الكبرى** (أي ربط النص بالسياق الاجتماعي الذي كُتب فيه). أي ربط السياق الداخلي بالخارجي، وذلك من خلال الاستشهادات المُقتبسة من الأعمال الروائية، بدأت الباحثة بتحليل الروايات تحليلًا طوليًّا (من خلال القراءة المُتأنية لكُل رواية على حدة، وفقًا للظروف الاجتماعية التي كُتبت فيها)، ثم تم التحليل عرضيًّا من خلال الربط بين مظاهر الديستوبيا في كل من الروايتين، وربطها بالنتائج التي تم التوصل إليها، مقارنة بالنتائج التي توصلت إليها الدراسات السابقة. أما **تفسير** البيانات، فقد جاء في ضوء الأطر النظرية التي انطلقت منها الدراسة، ومُقارنة ما تم التوصل إليه بالتراث البحثي الذي تم عرضه آنفًا.

ثامنًا- العوامل التي عززت من مظاهر الديستوبيا في الرواية:

شهدت المُجتمعات العربية مُنذُ النصف الأخير من القرن العشرين تحولات كبيرة في كافة مناحي الحياة، كما سادها العديد من صور العُنف الذي نجم عن تلك التحولات. وقد أسهم هذا المناخ في توجه الأدباء نحو كتابة نصوص روائية مُغايرة عمّا هو مُعتاد. فلم يعُد الأديب يكتُب عن الحُب، والمثالية، والخير وغيرها من القيم التي كانت تميز جُل الأعمال الروائية، بل لجأ بعض الأدباء إلى التعبير عمَّا يجتاح العالم من تدمير أو إذابة كُل ما هو صلب، على نحو ما ذهب "زيجمونت باومان". في ظل حالة السيولة هذه، ظهر أدب الخيال العلمي الذي عبَّر عن المرحلة، وما أنتجه العلم من مُنجزات خاصة في مجال التكنولوجيا. تزامن مع ظهور هذا النوع من الأدب نوع جديد؛ وهو "الأدب الديستوبي" أو "الديستوبيا"، الذي يُعبر عن الخوف، والألم، والعزلة، والموت، وغيرها من الآفات التي أصابت الإنسانية (سامح فايز، ٢٠٢١م: ٧٣: ٧٤). وسرعان ما انتشرت روايات الرعب، وأدب المدينة الفاسدة بين الشباب بصفة عامة، وجيل

Z على وجه التحديد؛ ذلك الجيل الذي يهتم بقراءة موضوعات تتسم بالجرأة، والتمرُد على الأعراف والتقاليد، فأبناء جيل Z على وجه التحديد ينفرون من الموضوعات التي تشعرهم بأنهُم لا يزالون تحت الوصاية، لذا ركز الأدباء في السنوات القليلة الماضية على كتابة أدب المُغامرات، والروايات البوليسية، والرعب، وأدب الفانتازيا (منى حواس، ٢٠٢٠م : ١٤٧-١٤٨).

وقد سعى الكثيرون إلى تقديم تفسيرات لانتشار هذا النوع من الأدب بين الشباب، ومدى انجذاب جيل Z تحديدًا له، حيث إن هذه الفئة العمرية تمتلك قُدرة كافية لفهم تفاصيل الروايات والقصص المُعقدة التي يقدمها هذا النوع من الأدب، فضلًا عن تمتعهُم بقدر كافٍ من وقت الفراغ، وانفتاحهم على آفاق رحبة نتيجة تواجدهم على الشبكة العنكبوتية. والدليل على ذلك أن هذا النوع من الروايات يتصدر قوائم الكُتب الأكثر مبيعًا حتى يومنا هذا (جودي شديد، ٢٠٢٠م: ١٥٦). فظهور هذا النوع من الأدب يُعد رد فعل طبيعي لجيل تأثر بالتجارب التاريخية وشعر بالقمع والضعف، بل إن بعضهم يائس؛ لأنهم يرون أن حُكوماتهم لا تفعل لهم شيئًا. ويشعرون بأنهم تسلموا مُستقبلًا انتهى قبل أن يبدأ، ووجدوا في مُجتمع مُبتلى بالجشع والأنانية والجريمة والفساد؛ لذلك فإنهُم يبحثون عن العزاء في هذا النوع من الأدب (جودي شديد، ٢٠٢٠م: ١٦٤).

تاسعًا- تجليات الديستوبيا من واقع الروايتين:

١. محتوى ومضمون الروايتين:

على الرغم من أن الرواية الأولى تحمل عنوان: **"يوتوبيا"**، غير أن عتبة النص تُمثل خداعًا عقليًّا للقارئ، ظنًا منه بأنه يُقبل على قراءة رواية تتحدث عن عالم مثالي، إلا أن الرواية تؤكد على وجود مُجتمع فاسد يسود فيه الظلم والقهر والكراهية، فبمجرد أن يفتح القارئ الرواية يجد اقتباسًا من الفيلسوف الألماني "بروتولد برخت": "حقًا إنني أعيش في زمن أسود: الكلمة الطيبة لا تجد من يسمعها، الجبهة الصافية تفضح الخيانة. والذي ما زال يضحك...لم يسمع بعد النبأ الرهيب أي زمن هذا" (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ٧). في هذه اللحظة يشعر

القارئ بأن توقعاته عن العالم المثالي لم تعُد حقيقية، وأنه مُقدم على عالم مُخيف.

تتكون الرواية من خمسة أجزاء، حملت الأجزاء الخمسة عنوانين: "الصياد والفريسة"، مما يوحي للقارئ بوجود تناقض، وهو ما سوف تظهره الرواية. تكشف أحداث الرواية عن وجود طبقتين مُتناقضتين: الطبقة العليا التي يُشار إليها باليوتوبيا، والطبقة الفقيرة التي يُشار بها إلى الأغيار أو الفقراء الذين يعيشون في واقع غير الذي تعيش فيه الطبقة الأولى، وبالطبع ستكون الأولى هي الصياد والثانية هي الفريسة. تمكن الكاتب، مُنذُ عتبة النص، من تقديم رؤية استشرافية لما قد يحدث نتيجة هذا التناقض بين شخصيات الرواية وبين الواقع الذي يعيشه كل منهم، كما تقدم الرواية رؤية للمُستقبل، على الرغم من أن أحداث الرواية تُشير بدايةً إلى الفوران الثوري الذي حدث في العام٢٠١١م في المنطقة العربية عامةً وفي مصر تحديدًا، حيث تقع أحداث الرواية، وما نجم عنه من تداعيات، لذلك سرعان ما عاد بالقارئ إلى العام ١٩٧٣م، وما أعقبه من تحولات في المُجتمع المصري نتيجة الانفتاح الاقتصادي، وكيف انقسم المُجتمع المصري جراء هذا الانفتاح إلى طبقتين: طبقة بالغة الثراء شديدة الرفاهية، وطبقة تفتقر لأبسط الحقوق وتُحرم من كافة الخدمات. وفي ظل هذا الوضع الجديد، تبدأ الطبقة الوسطى في التلاشي أو يسقط بعض من ينتمون إليها إلى أسفل، مما ينتج عن ذلك من صراع طبقي. ثم يأخذنا الكاتب مرة أخرى إلى المستقبل لتقديم رؤية استشرافية لما قد تؤول إليه الأوضاع في المجتمع المصري بعد خمسين عامًا من ١٩٧٣م حتى ٢٠٢٣م، على الرغم من وفاته عام ٢٠١٨م. ومن خلال رؤيته الاستشرافية، يتخيل الكاتب اختفاء الطبقة الوسطى من المُجتمع اختفاءً تامًا، وتبقى طبقتان تتفاوتان أشد التفاوت في مُختلف الأوضاع الاجتماعية، وهو ما جسده في الرواية من خلال انقسام المصريين إلى طبقتين: **الأولى**، طبقة فاحشة الثراء شديدة الرفاهية، يعيش أصحابها في مدينة "يوتوبيا"، تحميهُم قوات حماية أجنبية أطلق عليها "المارينز"، **والثانية:** هي الطبقة المطحونة والتي أطلق عليها "عالم الأغيار"، هؤلاء الذين يعيشون في أحد الأحياء الشعبية "حي شُبرا"،

وبعض منهم يُجبرون إلى العيش في اليوتوبيا من أجل خدمة قاطنيها. وعلى الرغم من أنهم يعيشون داخل اليوتوبيا، إلا أنهم لا يحظون بالرعاية والحماية الكافية التي يحظى بها السكان الأصليون. تبدأ أحداث الرواية بوصف طبيعة الحياة في اليوتوبيا، والأخلاق التي تسم سُكانها، ثم ينتقل لوصف حياة من يعملون من الفقراء داخلها، حيث حياة المُعاناة والظلم.

كما قدم لنا أحمد خالد توفيق رواية أخرى جديدة مُثيرة للجدل، تُعبر عن عالم كابوسي جمع بين معاني الظلام مع مظاهر الجهل والفقر والمرض، وهي رواية **"في ممر الفئران"**، التي تُعد مُعالجة لقصة "أرض الظلام" التي تعد واحدة من سلسلة "ما وراء الطبيعة". يوحي عنوان الرواية "في ممر" بالحالة التي يعيشها أبطال الرواية، حيث الظلام والضيق، واختار "الفئران" تحديدًا لما يتصفون به من ضعف حاسة الأبصار، وإشارة إلى ما يعتريهم من قهر وخوف، فيعيشون في جحور تحت الأرض، حيث يُسيطر عليهُم الظلام. وفي هذه الرواية أيضا، قسم شخصيات الرواية إلى فئتين، تعكس كل منهما حالة التناقض التي أصابت المجتمع، مثلما وصفها في روايته الأولى اليوتوبيا: **فئة النورانيين،** الذين يتوفر لهُم كُل سُبل السعادة والراحة يعيشون في جبال الهيمالايا، ويمكنهم التحكُم في سكُان الفئة الأخرى. وهي **فئة الظلام،** الفئة الفقيرة التي تعيش خارج أسوار مدينة النورانيين يعيشون في مكان يفتقر سُكانه إلى النور والحرية، يعتمدون على حاسة السمع واللمس، ومن السهل أن يتم خداعهم.

تدور الرواية حول قصة شاب أربعيني يُدعى الشرقاوي يعمل مُهندسًا، ينتمي إلى الطبقة الوسطى، إلا أنه يمقت حياته ولا يشعُر بالراحة والرضا عن أي شيء يفعله، يلجأ إلى تناول بعض أقراص المُنوم هربًا من واقعه، فيدخل في غيبوبة يعجز الأطباء عن معرفة أسباب حالته، وعندما يفيق يعيش في عالم آخر؛ عالم تسيطر عليه الخيالات والهواجس. تبدأ القصة بدخول الشرقاوي في حالة من التخيلات والغيبوبة ليعيش حياة مليئة بالكآبة والظلام؛ العالم الذي يشير إليه عنوان الرواية "في ممر الفئران". يتشكل هذا العالم نتيجة اصطدام نيزك

بكوكب الأرض، مما أدى إلى حجب أشعة الشمس عن الكوكب، فيعيش الناس في ظلام دامس. وعلى مدار الرواية وتتابع أحداثها، يسرد الكاتب حياة بعض الشخصيات إلى جانب الشخصيات الرئيسة، وحدوث العديد من المغامرات بين شخصيات عالم الظلام الذين يخافون النور ويفضلون العزلة عن المُجتمع، وعالم النورانيين أو الضوئيين، كما يُطلق عليهم، أو القادرون على الثورة بما يمتلكونه من قدرة على المعارضة، ومن ثم التمرد الذي يقود إلى التمرُد.

يتضح من الروايتين رؤية الكاتب لطبيعة التناقضات التي ألمت بالمُجتمع وتداعياتها على حياة من يعيشون فيه، وإن كان قد عبر عنه بصورة مُتخيلة، إلا أنه كان يُدرك أن المُجتمع سوف يتحول إلى مجتمع فاسد (ديستوبي) في القريب.

٢. معنى الديستوبيا داخل الخطاب الروائي:

تُشير الديستوبيا في الخطاب الروائي إلى التناقضات التي يحياها البشر داخل المُدن المُسيجة، تلك المدن التي تعكس طبيعة الحياة داخل المجتمعات ما بعد الحديثة أو الحياة السائلة أو مجتمع المخاطر، وغيرها من السمات التي وصفها علماء الاجتماع، والتي أكدوا على تداعياتها السلبية على حياة الإنسان. إن هذه التناقضات بين من يملكون هذه المساكن، ومن يعملون لديهم من الفقراء هي المسئولة عن تجلي صور من الحياة الفاسدة. إن هذه الحياة الفاسدة ليست نتيجة التناقضات بين من يسكنونها وبين من يعملون لديهم، بل إن مظاهر الفساد أو الديستوبيا تكمن في حياة الأغنياء والفقراء على حدٍ سواء. تبدو المساكن المسيجة من الخارج وكأنها مدن مثالية، حيث إنها أحيطت بأسوار وحراسة أمنية مكثفة ومراقبة عالية، إنها تبدو وكأنها مدينة غير واقعية من عالم آخر يتعذر على الفقراء العيش بداخلها، حتى وإن كانوا يعملون لخدمة الأغنياء، إلا أنها تعجّ بمظاهر الفساد. يصف الكاتب "اليوتوبيا" أو المدن المُسيجة، على لسان أحد الشخصيات، بقوله: "يوتوبيا...المُستعمرة المنعزلة التي كونها الأثرياء على الساحل الشمالي ليحموا أنفسهم من بحر الفقر الغاضب بالخارج، والتي صارت

تحوي كل شيء يريدونه.. يمكنك أن ترى معي معالمها، البوابات العملاقة، السلك المكهرب، دوريات الحراسة التي تقوم بها شركة (سيفكو) التي يتكون أكثر العاملين فيها من (مارينز) متقاعدين، أحيانًا يحاول أحد الفقراء التسلل للداخل دون تصريح، فتلاحقه طائرة الهليكوبتر وتقتله" (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ١٩).

وهُنا، وكأن الكاتب يُصور لنا حياة النُخبة ذات الثراء الفاحش التي تعيش في التجمُعات السكنية التي أُستحدثت في المُجتمع المصري مع سياسة الانفتاح الاقتصادي، والتحول نحو الرأسمالية مُنذُ مُنتصف سبعينيات القرن العشرين، فمن خلال هذا الانفتاح ظهرت مجموعة من رجال الأعمال أو النُخبة التجارية الذين فضلوا الانعزال عن المُجتمع والعيش في تلك الأماكن كنوعٍ من التمايز الاجتماعي، مما أدى إلى بداية ظهور التناقضات التي تصاعدت في السنوات التي أعقبت الانفتاح الاقتصادي. وفي ظل هذا الوضع انقسم المُجتمع المصري إلى طبقتين: **طبقة الأغنياء** الذين يعيشون في مُجتمع مثالي يوتيوبي منعزل عن الواقع الذي يعيشه باقي سُكان المُجتمع، الذين تحولوا إلى كُتلة بشرية تُعاني من أوضاع اجتماعية مُتردية، تُعلن بداية التناقُضات الحادة. والجدير بالذكر، أن هذا الوضع لم يشهده المجتمع المصري فحسب، بل انسحب لغالبية مُجتمعات العالم، وهو ما عبر عنه عالم الاجتماع البريطاني أنتوني جيدنز بعبارة: "التحول نحو اللامركزية والانتقال إلى أسفل devolution –على سبيل المثال- يُمكن أن تكون أفكارًا جذابة للعامة، حيث تتضمن الرجوع إلى مستوى الإقليم، والمدينة، والجيرة، ومثلها مثل كُل عمليات التحول إلى الديمقراطية، فإن منافعها تقترن ببعض الآثار السلبية. فالانتقال بالديمقراطية لأسفل يُمكن أن يؤدي إلى التفتُت، إذا لم يُناظره تحول في القوة الصاعدة إلى أعلى (أنتوني جيدنز، ٢٠١٠م: ١١٦).

لذا جسد "أحمد خالد توفيق" الوضع الذي يعيش فيه سُكان يوتوبيا على لسان أحد أشخاص الرواية بقوله: "وماذا بوسعك أن تفعل في هذه الجنة الصناعية؟.. تنام.. تتعاطى المخدرات.. تأكل حتى يزهق الطعام أنفاسك.. تقيء حتى تتمكن

من معاودة لذة الأكل... تمارس الجنس (من الطريف أن تلاحظ كيف يجعل الملل سلوكك الجنسي عدوانيًّا ساديًّا) (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ١٨)، كما أكد بقوله: "لم يكُن لدى المصريين ما يُباع سوى الماضي وقد اشتريناه، ودفعنا ثمنه بالبايرول الذي احتكرته يوتوبيا المجتمعات المُماثلة.. عقد لمدة خمسين سنة يكفل لكم البايرول اللازم للحياة.. كيف تحسب سياراتكم وطائراتكم هذه تتحرك؟... كل السيارات والطائرات تتحرك بالبايرول منذ عشرة أعوام.. السيارات والمحركات التي تتحرك بالبترول قد انتهى عهدها أو كاد.. لقد صار البترول رخيصًا كالماء، لكن المشكلة هي ندرة الآلات التي تعمل به" (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ٣٢). كما يُجسد الكاتب معالم الخطر التي تُحيط بنا في المُستقبل القريب بعد أن يصفها أحد علماء ناسا في رواية ممر الفئران بقوله: "هذا نيزك غريب الأطوار.... لا نعرف من أين جاء، ولا لماذا قرر أن يدّمر عالمنا، لكن النتيجة الحتمية هي أنه سيصدم كوكبنا لتكون هذه هي نهاية الحضارة كما نعرفها" (أحمد خالد توفيق، ٢٠١٦م: ٥٠).

هُنا، وكأن الكاتب يرسم ملامح مُجتمع المخاطر التي دشنها "أولريش بيك"، حيث قسمت العولمة العالم إلى عالمين: عالم الأغنياء وعالم الفقراء، وكُل منهُما يسوده حالة من اللايقين وعدم الثقة، ترجع في الأساس لغياب الشعور بالأمن، وعدم القدرة في السيطرة على المخاطر التي تواجه الأغنياء من أبناء الوطن، وهو ما يُشير إليه "أولريش بيك" بقوله: "يلاحظ في الحياة اليومية في مُجتمع المخاطر العالمي أن هُناك نزعة جديدة تُشير إلى الفردية، حيث يتعيَّن على الفرد أن يتخذ قراراته الخاصة بنفسه في مواجهة عدم يقين المُجتمع الدولي. وقد نشأ عن هذا الشكل الجديد فشل الخبراء في إدارة المخاطر. فلا العلم ولا السياسة ولا نظام القانون أو حتى الجيش نفسه يمكنهم أن يحددوا المخاطرة بصورة عقلانية أو يتحكموا فيها" (أولريش بيك، ٢٠١٣م: ١٠٨). يأخذنا الكاتب إلى عالمين: عالم اليوتوبيا كما تمثله الأماكن المُسيجة، وفي المُقابل هذا العالم الجديد العالم الذي أفرزته العولمة، **عالم الأغيار أو مُجتمع الأغيار**، عالم الديستوبيا كما

ينبغي أن يكون، هُناك في شبرا وغيرها من المناطق الشعبية والعشوائية التي تقف على النقيض من عالم المساكن المُسيجة، يصفه الكاتب بقوله:

"شبرا... خليط عجيب من الروائح والأصوات والمشاهد.. الرائحة الأولى والرئيسة هي رائحة العرق.. في هذه الرائحة ذابت روائح غريبة من المأكولات والوحل والفضلات البشرية وربما الدماء.. هناك عربات تكدست فوقها أطعمة.. خلائط من الأطعمة.. هناك كومة أرز، وكومة من عجينة بيضاء، أعتقد أنهم يطلقون عليها اسم (كسكسي)، وبرتقال، ويوسفي، ومشروبات ساخنة لا تعرف ما هي.. منذ زمن صار هناك باعة جائلون للخمور، ولكن أي خمر هذه؟.. زجاجة بحجم الكف ثمنها خمسون جنيهًا مع كل هذا التضخم!.. لو كان هذا بولًا لكان سعره أكثر من ذلك.. زجاجات عطر قديمة امتلأت بما لا يُمكن معرفة كنهه.. أعتقد أن الكحول الأحمر عامل مشترك بين كل هذه السوائل... لكن الأخلاق تتآكل في الفقر كما يتآكل المعدن الذي يقطر فوقه الماء... والأغرب أن الكحول الميثيلي لا يصيب هؤلاء القوم بالعمى كما يفعل في العالم كله.. لو كانت معدتهم من حجر، وكبدهم من فولاذ، وعصبهم البصري كابل كهرباء" (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ٤٨-٤٩).

وهُنا يُسلط لنا الكاتب الضوء على الواقع الفعلي في المناطق العشوائية التي تُمثل الديستوبيا، من وجهة نظر الأغنياء داخل المُجتمع المصري، كما يوضح لنا قُبح تلك الأماكن، والقضايا التي تتعلق بتلك الفئات المُهمشة، وكيف كان يتم التعامل مع الأغيار على أساس الازدراء والاحتقار، وكأنه يُجسد وجهة نظر "زيجمونت باومان" بأن تقيؤ الأغيار ولفظهم بصفتهم غرباء وأجانب لا ينتمون إلى مكان بأي حال من الأحوال، ويحظر عليهُم الاتصال الجسدي والحوار والتفاعل الاجتماعي وأشكال الاتصال مع غيرهُم من الطبقات الأخرى. لا يقتصر هذا العالم على الحالة التي يعيشها سُكان هذه المناطق، وإنما يصفها "بومان" بأنها عالم النفايات أو الفائض السُكاني الزائد على الحاجة، ومن ثم ينبغي التخلُص منه. وهُنا يكشف الكاتب أيضًا عمَّا توصل إليه العلم بعد أن شيد

الإنسان عالم اليوتوبيا أو المدينة الفاضلة، التي تمتلك درجة عالية من التقدُم العلمي، تُحيط به العديد من مصادر الخطر ويُصيبيه التدهور، وتعتريه عدد من الآفات، فينقسم البشر في العالم إلى صنفين: مرفهون يتمتعون بكل سُبل الرغد والراحة، وآخرون مُستبعدون يعيشون حياة مريرة، يُعانون فيها من الجوع والمرض، ومع التدهور يفقد الأغنياء المرفهون القُدرة على التفكير، وينهال الفقراء المُتعبون على حياة المرفهين، ويسود الظلام العالمين اليوتوبيا والديستوبيا على حدٍ سواء.

ويلقي الكاتب بعد ذلك الضوء على تشكيل وعي الشباب وهويتهم؛ من خلال تفسيره للمُغامرة والمُخاطرة التي يتعرضون لها، حيث يُخاطر الفقراء بمُمارسة بعض السلوكيات الخَطِرة، والدخول في مُمارسات محفوفة بالمخاطر، فتناول الكحول الأحمر، وهو مشروب كحولي يتم إنتاجه بتخمير العنب، ويُطلق عليه البعض النبيذ الأحمر، وتعاطي المخدرات هو ما يجعلهُم قادرين على التعايش داخل مُجتمع مُظلم كهذا. ففهم وتأويل ثقافة تناول الكحول وتعاطي المخدرات، لم يكُن أمرًا أو قرارًا فرديًا، إنما هو قرار جماعي يقوم بهِ الأغلبية. وكأن التعامل في زمن العولمة هو ما يدفع الشباب إلى التفكير في مُنتجات الحداثة، ونقد مشروعاتها التدميرية للإنسان وحياته؛ بل ويدعو إلى ضرورة التحول من الحداثة إلى ما بعدها، فالوضع اليوم ازداد فيه الشعور بالخوف واللاأمن، كما عانت الهوية والحياة من مظاهر اختلال عدة، في ظل تحولات متقلبة وغير مستقرة، وهو ما عبّر عنها باومان بمصطلح 'الحياة السائلة، التي عاد فيها العنف إلى الظهور بأساليب جديدة، وبدأ يسوق الشر فيها على أنه خير.

٣. مظاهر الديستوبيا في الروايتين:

ظل الكاتب عبر الروايتين مُنشغلًا بما يطرأ على الواقع الاجتماعي المصري من تحولات على كل الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي عاصر بعضها، وتوقع حدوث البعض الآخر منها. وذلك لإبراز مظاهر

الديستوبيا خلال تلك الفترات، تلك المظاهر التي تجلت في: القمع، والفقر، والجهل، والظلم، وغيرها من المظاهر التي سيطرت على شخصيات الروايتين. ومن ثم خلقت حالة من انهيار القيم الإنسانية واللامعيارية التي أصابت المُجتمع بالضعف والوهن. لقد أدى وجود هذه المظاهر إلى حدوث فجوة بين الأهداف الاجتماعية والوسائل المُتاحة للأفراد. كما حاول الكاتب ابتكار عالم افتراضي مُقتبس من واقع اجتماعي مُتخيل؛ ليُقدم صورة موازية لهذا الواقع، يتضح فيها غياب الكثير من حقوق المواطنة، المُتمثلة في: الحقوق السياسية، والاجتماعية والاقتصادية، كما وضح الكاتب للقارئ إمكانية تحول المُجتمعات من اليوتوبيا إلى الديستوبيا التي تدعو إلى مزيد من الشر والتشاؤم والإحباط.

شكل رقم (١): يوضح مظاهر الديستوبيا في الروايتين

(تصميم الباحثة بعد الاطلاع على التراث البحثي).

يتضح من قراءة الشكل السابق مظاهر الديستوبيا التي تُصورها النصوص الروائية، وسوف يتم تحليل النص تحليلًا كيفيًّا للتعرف على الصورة الكيفية التي تتجلى بها مظاهر الديستوبيا، وفيما يلي تحليل كيفي لهذا الشكل التوضيحي:

أ. الخراب:

تعكس الروايتان الواقع الذي ألمَّ بالمُجتمع المصري، ذلك الواقع الذي أدى إلى حالة الإفقار، والذي قاد بدوره للتردي الأخلاقي والقيمي، والتراجع الفكري

الذي عبر عنه الكاتب بكلمة "خراب"، وهو ما يتضح في قول أحد شخصيات رواية "يوتوبيا":

"يصير الأغنياء أغنى والفقراء أفقر، ثم تأتي لحظة يحدث فيها الانهيار.. ويبدو لي أن هذا حدث في السنوات العشر الأولى من هذا القرن.. فجأة انهار السد.. لم تعد السياحة قادرة على إطعام هذه الأفواه.. إسرائيل افتتحت قناتها التي صارت بديلًا جاهزًا لقناة السويس.. الدول الخليجية نضب بترولها أو تم الاستغناء عنه بعد ظهور (البايرول)، وطردت العمالة الوافدة.. هكذا وجد الاقتصاد عليه عبئًا قاصمًا، وانعدمت الخدمات للفقراء؛ لأن الدولة أعفت نفسها تمامًا من مسئوليتهم، وخصخصت كل شيء.. لم تعد هناك حكومة، أو لم تعد هناك حكومة تعبأ بنا.. مع الوقت توقفت الرواتب، وتوقفت الخدمات، وذابت الشرطة؛ وبالتالي، وبالتالي، لم تعد علينا ضرائب.. كان آباءكم من طبقة استطاعت أن تستخدم نفوذها للإثراء.. حسابات مصرفية في الخارج.. قروض من المصارف.. احتكار.. كل شيء كان في مصلحة آبائكم وضدنا على طول الخط.. هكذا استطاعت هذه الطبقة أن تتماسك وتزداد ثراء، بينما هوينا نحن إلى الحضيض (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ١٠٠-١٠١).

وفي رواية "في ممر الفئران"، لم يكتفِ الكاتب بالحديث عن الخراب الذي ساد المُجتمع جرّاء تزايد حالة الإفقار، وما نجم عنها من استقطاب طبقي، بل استشراف مُستقبل مُنذر بالخطر، نتيجة الدور الذي تقوم به الدولة بولائها للفئات الاقتصادية الأقوى: "كل الحكومات تؤدي عملها كما كانت، لكنها ملزمة بالولاء "للقومندان" الذي يعتبر القائد الأعظم.. إن ما يملكه من صواريخ نووية يجعل الطاعة واجبة له، خاصة أنه يرى وهم لا يرون.. الإبصار الذي يملكه رجال الشرطة مرتبط بإشارة إلكترونية يومية تجعلها تؤدي عملها.. هذا ما يجعله مسيطرًا عليهم، ويمكنه أن يعيدهم لحالة العمى إذا شعر بأي تمرد" (أحمد خالد توفيق، ٢٠١٦م: ٢٤٦). وينهي الكاتب الروايات بنهاية مفتوحة، ربما للإشارة إلى وجود أمل خافت في المُستقبل، وربما لم يجرؤ على القول بأنه سوف ينتصر،

أو ربما لاستمرارية الصراع، فلا انتصارًا كامل ولا انهزامًا كامل، ولكنه في كُل الأحوال يرفض التسليم بكلمة النهاية.

ب. الدمار:

يُقصد بِهِ الدمار الذي أحدثته بعض الثورات التاريخية التي حدثت في العالم، لذا يستدعي الكاتب بعض الثورات التي مرت بها بعض الدول: كالثورة الإيرانية التي نشبت في ٧ يناير ١٩٧٨م، واستمرت عامًا كاملًا ١٩٧٩م بمُشاركة عدد من الفئات المُختلفة، وحولت إيران من نظام ملكي تحت حُكم الشاه محمد رضا بهلوي، الذي كان مدعومًا من الولايات المُتحدة، وتحوله من نظام ملكي إلى نظام جمهوري. كما ذكر موقف إعدام "تشاوشيسكو" الأمين العام للحزب الشيوعي الروماني، الذي تم إعدامه هو وزوجته رميًا بالرصاص بتهمة الإبادة الجماعية، وتخريب الاقتصاد الروماني، ولم يكتفِ بذلك، لكنه أشار إلى إعدام "موسوليني" حاكم إيطاليا ومؤسس الفاشية الذي أطيح بِهِ عام ١٩٤٥م في نهاية الحرب العالمية الثانية، رميًا بالرصاص على يد الثوار في حركة المُقاومة الإيطالية. وهُنا وكأن الكاتب في نصه الروائي يُحاول أن يؤكد على حقيقة أن الماضي قد لا يختلف عن الوضع الحاضر كثيرًا، وأن الشر السائل ما زال مُنتشرًا، فما حدث نهاية الحرب العالمية الثانية يُعاد إنتاجه مرة أخرى، ولكن بصورة مُختلفة، ولكن نهاية السقوط تكاد أن تكون واحدة؛ فالشعب لن يصمت كثيرًا على الظلم أو الطغيان الذي يتعرض له، وإن كانت الأجهزة الأمنية تؤمّن جميع الجهات، ويوضح ذلك على لسان أحد الشخصيات بقوله:

"هذا شيء يتكرر من حين لحين.. لكن ثورات القرن العشرين التي تحقق غرض الجموع، قد صارت تاريخًا بائدًا.. لقد تعلم من هم فوق أخطاء الآخرين.. لن يرى أحد ثانية شاه (إيران) الذي يحلق بطائرته بحثًا عن بلد يؤويه، ولن ترى جثة (شاوشيسكو) أو (موسوليني) معلقة في ميدان عام.. إن النظام الأمني معقد متطور اليوم.. هناك ستة أجهزة أمنية تراقب بعضها، ومهمة كل منها حماية

الحكام.. إن ثورات اليوم هي أقرب (هوجة)، ثم تحلق طائرات الهليكوبتر لتلقي قنابل عدة طلقات فيتفرق الجميع.." (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ١١١).

يؤكد الكاتب هُنا على ما ذهب إليه "باومان" فيما يتعلق بأشكال الشر التي لحقت بالعالم في زمن الحداثة السائلة، باعتبار أن الشر مُتعدد غير مُحدد المعالم، "الشر السائل الذي يُسوق على أنه خير، فأنت لا تشعر به، ولكنه يحيط بك من كُل جانب، ولا يُمكن السيطرة عليه" (زيجمونت باومان وليونيداس دونسكيس، ٢٠١٨م: ٢٥). كما يحاول الكاتب من خلال عدد من الإسقاطات التاريخية، أن يوضح حقوق المواطنين الغائبة، ومؤشرات الثورة التي من المُمكن أن يقوم بها أبناء الوطن، فإذا كان النص يعرض لأحداث تاريخية مُتعددة، فإنه يحاول أن يعكس لنا إلى أي مدى غابت تلك الحقوق الاجتماعية والاقتصادية والسياسية عن مواطنيها، ولكن في النهاية يثور أبناء الوطن، ويطالبون بحقوقهم المسلوبة منهم.

وينقلنا الكاتب من الأحداث التي حدثت في عدد من الدول إلى مصر، وكيف غيرت تلك الأحداث من المنظومة القيمية والأخلاقية للمجتمع المصري، فلم تعد الأسرة وحدة إنتاجية كسابق عهدها، كما تغيرت النظرة للزواج وتكوين الأسرة، فلم يكُن الحب أو الميل العاطفي، والقدرة على تكوين أسرة ناجحة هو الأساس الأول للزواج، ولم تكن مسئولية الرعاية الاجتماعية للأبناء مسئولية مُشتركة، ولم يعُد الشريكان (الزوج والزوجة) يتوقعان البقاء معًا فترة طويلة. ويتفق ذلك مع كل النظريات التي نظرت للعولمة وتداعياتها، بدءًا من "أنتوني جيدنز" مرورًا "بأولريش بيك" ووصولًا إلى "باومان". فقد أحدثت العولمة شروخًا في طبيعة العلاقات الإنسانية، وغيرت من مفهوم الحب، حتى بين أفراد الأسرة الواحدة، واحترام الأبناء لآبائهم. يصف الكاتب حوار علاء مع والدته بقولها: "للمرة الألف.. اسمه بالنسبة لك (بابا) وليس (مراد).. أنا أسمح لك بأن تناديني باسمي بدلًا من كلمة (ماما)، كي أحتفظ بصداقتك، لكن هناك حدود يجب ألا تتجاوزها... وأنا لن أسمح له بهذا.."(أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ٢٨). وهُنا يبدو أن الكاتب يحاول أن يوضح طبيعة التحول الذي أصاب الأسرة المصرية

نتيجة للمؤثرات التكنولوجية المُختلفة، مما ساعد على تلاشي بعض القيم والثوابت التي كانت تتحلى بها الأسرة المصرية.

ترصد رواية اليوتوبيا ما أصاب العلاقات والروابط الاجتماعية من هشاشة داخل المُجتمع بصفة عامة، تلك الهشاشة التي غيرت ملامح وعلاقات أفراد الأسرة الواحدة، والصلات القوية التي ظلت لعقود طويلة، ويتضح هذا بقول علاء: "جرمينيال نائمة كطفل.. تتحرك شفتاها.. تهمس من روح معذبة: ليلى.. ليلى.. ليلى هي أمها طبعًا (فلا أحد في يوتوبيا يستعمل لفظة ماما أو بابا)" (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ١٠٣). فهذا يؤكد على وجود فكرة الجمود العاطفي، الناجم عن تقليد الثقافة الغربية، بين الآباء وجيل الأبناء، وقد يرجع هذا إلى انشغال الآباء عن أبنائهم لجمع المال، كما وضح لنا الكاتب كيف تعرضت الأسرة التقليدية لعدد من الأزمات، مما أدى إلى تفكك رباط الأسرة، فلم يهتم أفراد الأسرة بأداء واجباتهم الأسرية تجاه أبنائهم كما هو مُعتاد. كما تغير احترام الأبناء لآبائهم. يدلل الكاتب في رواية اليوتوبيا على لسان علاء بقوله: "لم يعتد أبواي مراقبتي...لا أحد يتدخل في حياتي على كل حال.. من حقي أن أتعاطى أي شيء بأي كمية وبأي ثمن، وإلا فما كان عليهما أن ينجباني.. ليست الأبوة عملًا عظيمًا لهذا الحد.. بوسعي أن أكون أبًا لألف ابن لو أعطيتني ألف امرأة" (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ١٦-١٧). وعلى الصعيد الآخر، لم يلتزم الأبناء أنفسهم باحترام آبائهم، ونشأت العلاقات الأسرية غير السوية. فلم يعُد بوسع إنسان الحداثة السائلة، على حد تعبير "باومان"، أن يُطيق العلاقات الإنسانية المُستمرة، وهذا ما جعل تلك الروابط تُستهلك. ففي كتابة "الحُب السائل" يلقي "باومان" الضوء على ما وصلت إليه المُجتمعات الحداثية من تهاون في حق الحُب الحقيقي، وكيف دمرت العلاقات العاطفية وتحولها إلى علاقات مؤقتة تخضع لحاجات المُجتمع الاستهلاكي، وتحول كُل شيء قديم إلى مُستهجن يجب أن يوضع في سلة المُهملات؛ لذا أعلن "باومان" في إصرار بقوله: "لقد انقضى عهد الحُب الرومانتيكي القائم على مقولة: "لقد تعهدنا ألا يفرقنا إلا الموت" (زيجمونت باومان، ٢٠١٦م: ٣٩).

لم تقتصر التغيرات التي اجتاحت العالم على الروابط الأسرية والعلاقات العاطفية؛ وإنما امتدت إلى اللغة، التي تُعد أحد مكونات الهوية، فقد استبدلت المفردات اللغوية التي كانت سائدة، خاصة في العلاقات الإنسانية بمفردات جديدة، تشعرك وكأنك في مجتمع آخر غير الذي نشأتَ وعشت فيه، ففي رواية "في ممر الفئران" يؤكد الكاتب على هذه الظاهرة: "هناك كلمات انتهت من اللغة لأنها لم يعد لها قيمة مثل (صباح الخير ونهارك سعيد) ففي البداية كان من يستعملها يجلب لنفسه السخرية، وبعدها صار من يستعملها يجلب لنفسه اللوم. وهناك أشياء لم يعد لها معنى.. ما معنى أن اللبن أبيض؟ ما معنى أن البحر أزرق؟ ما معنى أن فلان أصفر من الحقد أو أحمر من الغيظ؟ هذه ثقافة لم يعد فيها مكان للون" (أحمد خالد توفيق، ٢٠١٦م: ١٥٢). يتضح من ذلك، أن اللغة لم يعد لها معنى أو لون أيضًا، وكأن طبيعة الحياة في المجتمعات الحديثة لم يعد لها معنى أو لون.

وفي رواية "في ممر الفئران" حاول الكاتب أن يُقدم صورة أخرى من صور الدمار بوصفه للظلام الذي ساد كوكب الأرض حينما سقط النيزك، وحُجبت الشمس عن الكوكب؛ فساد الظلام وتعطلت الحياة وبقي النور في أعلى قمة "جبال الهملايا" وفقًا لتعبير الكاتب، بحيث لا ينال منه سوى بعض المُنتفعين الذين استطاعوا السيطرة على الجميع. ولعل الدور الذي قام بِهِ القومندان لصورة من صور الإسقاط السياسي على الديكتاتورية التي عاشت في ظلها بعض المُجتمعات.

بدأ الكاتب رواية "في ممر الفئران" بوصف مدينتين إحداهما واقعية، والأخرى مُتخيلة. المدينة الواقعية هي تلك التي يعيش فيها "الشرقاوي"، الشخصية الرئيسة في الرواية، في حالة من الغموض، والاغتراب، والشعور بالملل والضيق من واقعه الأليم. أما المدينة المُتخيلة، فهي المدينة التي أطلق عليها "ممر الفئران"، المدينة التي وجدت بعد سقوط النيزك على كوكب الأرض، والتي وصفها بقوله: "الظلام في كل صوب.. ظلام متجانس مخملي، يمكنك أن تلمسه وتتحسسه، لكن لا تقدر أن تمزقه، ظلام بلا بداية ولا نهاية (أحمد خالد

توفيق، ٢٠١٦م: ٦٩)". لقد تحولت المدينة بعد ذلك إلى "ديستوبيا"، حيث عمَّ عليها الظلام، وازداد فيها الشر والخبث، لهذا وصف الكاتب المشهد على لسان أحد شخصيات الرواية بقوله: "الظلام في كل صوب.. ظلام مُتجانس مخملي، يمكنك أن تلمسه وتتحسسه لكن لا تقدر أن تمزقه، ظلام بلا بداية ولا نهاية. قال الرب: "فليكن نور"، لكنك جئت العالم قبل تلك اللحظة المُقدسة. الظلام في كل صوب.. ظلام كغاز سام يتسرب عبر فتحات الأنف إلى روحك.. روحك تظلم.. تنطفئ" (أحمد خالد توفيق، ٢٠١٦م: ٦٩).

ج. القتل:

في زمن الحداثة السائلة أصبح القتل هو الآلية الأوضح للدفاع عن النفس، فبعد أن كانت الدولة هي التي تقوم بدور الحماية والدفاع وتأمين المواطنين، أصبح الدفاع عن النفس مُهمة فردية، وأصبحت الفوضى تسود المُجتمع، فانتشر القتل: الفردي والجماعي والعالمي؛ بسبب الحروب العبثية، التي تؤدي إلى الخراب والدمار المادي والمعنوي، خصوصًا الحروب المُستقبلية؛ لأنها طاحنة، وسوف تقود إلى فناء البشرية. لقد وسمت الحداثة في صورتها السائلة العالم بصور من الفساد، المادي والمعنوي، الذي تجلى في المدن الحديثة فيما بعد ، حيث إنها مُدن اليوتوبيا المليئة بالمغامرة والإثارة، يمثل فيها الأغنياء فئة تقوم بقتل الفقراء كوسيلة لكسر الملل والروتين، فيقول علاء في يوتوبيا: "قدمت أسبابي لمُمارسة صيد البشر، والتي تتلخص في ثلاث نقاط: الملل ثم الملل ثم الملل" (أحمد خالد توفيق،٢٠٢٣م: ٣٣)، وحينما رفض حارس الأمن الذي يقوم بحماية اليوتوبيا بأن يقوم علاء بمثل هذه الجريمة برر موقفه قائلًا: "لا شيء يحدث... هؤلاء الذين خارج الأسوار خراف لا أكثر.. صدقني.. هم فقدوا القدرة على الغضب" (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ٣٣).

لقد فسر "زيجمونت باومان" في كتابه "الخوف السائل" هذه الظاهرة بوضوح، كيف أن الحداثة وعدت الناس بالقضاء على الخوف بكُل أشكاله؛ الخوف من الآخر، والخوف من الطبيعة، والخوف من الأمراض التي تُصيب

الإنسان وتؤرقه، إلا أنها نقضت هذا الوعد، فزادت الحروب، وحدة قتل الإنسان لأخيه الإنسان، وتزايدت موجات الإرهاب حول العالم، وانتشرت الأمراض وزادت حالات القتل...إلخ. وهنا أصبح الأمان هو مسئولية الفرد، وبدلًا من رعاية الدولة، ظهر السوق ليُقدم خدمات الأمن والأبواب الآمنة، والسيارات المُصفحة، والأسوار العالية، وكاميرا المُراقبة؛ ومن لا يملك تكلفة ذلك عليه أن يتعلم كيف يدافع عن نفسه بطرق أقل تعقيدًا، ولكن أكثر وحشية (زيجمونت باومان، ٢٠١٧م: ١٢).

كما عبر "أحمد خالد توفيق" عن هذه الحالة الوحشية التي أشار "زيجمونت باومان" في الروايتين، حيث يذهب في يوتوبيا بأن الموت صار لُعبة يلهو بها سُكان اليوتوبيا: يتوازى الموت خلف الأسلاك الشائكة، فلا يصير إلا لعبة يحلم بها المراهقون... (يوتوبيا) ستة عشر عامًا من عمرك أنت لا تنتمي إلا إلى يوتوبيا... أنت مواطن (يوتوباري) ذوبتك الحياة المترفة وذوبك الملل" (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ١٤).

مثلما صور الكاتب مظاهر الديستوبيا، مُتمثلة في القتل في رواية "يوتوبيا" صورها كذلك في رواية "في ممر الفئران". يصف الشرقاوي، بطل الرواية، بقوله: "سمع كذلك صوت جنازير، فأدرك أن هناك من يمسك بعدة كلاب، ثم سمع صوت التمزيق والصراخ.. العويل.. التوسل.. النباح" (أحمد خالد توفيق، ٢٠١٦م: ٢٤٩). ويؤكد على الطريقة التي يتم بها القتل في موضع آخر: "هناك صرخات قريبة من صرخات النشوة، هناك لهاث يشي بالحماس، ثم سمع صوت الصرخة، صرخة طويلة، عميقة، طويلة، متحشرجة، قاسية، عالية، مهزومة، متوسلة، مهزولة، متوجعة، الصرخة تتردد وثمة من يصرخ! الرحمة! لا!! سمع من يقول: الموت للخائن، ومن يقول هذه الطريقة هي المفضلة عندي، ثم يتكرر الصراخ، بعد لحظات بدأ واضحًا إن الرجل تحشرج ثم مات على الأرجح، هل هي جريمة قتل!!" (أحمد خالد توفيق، ٢٠١٦م: ٨٢). وهُنا يظهر الموت أو القتل ممزوجًا بتشجيع العامة على قتل النورانيين، وتلهفهم لإيجاد أنواع جديدة

من القتل. وهو ما أكده "باومان" أيضًا في كتابه "الخوف السائل" حينما ذهب بأن: "ما دام الكوكب يخضع لهذه العولمة السلبية وحدها، سوف تنتفي العدالة ويسود الظلم من القوي على الضعيف، فتظهر موجات الصراع والعنف والضربات اللانهائية كرد فعل لمثل هذه العولمة السلبية، بينما تنعم النخبة بحُرية الانتقال لعوالم مُتخيلة، ويسقط الفقراء في مستنقع الجريمة والفوضى"(زيجمونت باومان، ٢٠١٧م: ١٧٦)، وبذلك يصبح مشهد القتل في تلك المُجتمعات مشهدًا مألوفًا. فدائمًا ما كان أبناء الأغنياء يُفكرون في قتل البشر أو صيد البشر، على حد تعبير الكاتب في الرواية، كونها وسيلة للتفاخر والحصول على الفريسة ووسيلة لتحقيق النصر، ولكن الفقراء لن يظلوا صامتين حتى النهاية، فتقول أم علاء زوجة مراد بيك تعبيرًا عن حياة الفقراء: "إنهم قد سلبوا كُل شيء، وظلوا صامتين، فماذا يحدثه موت واحد فيهم من فارق؟... لا أظن الثورات تقوم لأسباب كهذه.." فيرد عليها زوجها: "بل لا تقوم إلا لأسباب كهذه.. الصخرة تحملت الكثير من الضربات، لكنها تفتّت عند الضربة الخمسين.. لم تكن الضربة الخمسون هي ما فعل ذلك لكن كل الضربات السابقة" (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ١٧٧).

في ظل هذه الحالة، تتحول الحياة إلى جحيم أو كابوس يُطارد الأغنياء أصحاب النفوذ والأموال، ويُحاول الفقراء التعبير عن سخطهم عن الحياة التي يحياها أبناء اليوتوبيا، وتتحول اليوتوبيا إلى مُجتمع تنتشر به الفوضى والحروب، وتشتعل الحروب بين مُجتمع اليوتوبيا ومُجتمع الأغيار، ويكون القتل هو الوسيلة الأنجع للحصول على حقوقهم، ويبرر علاء في اليوتوبيا هذا السلوك تبريرًا تاريخيًّا بالعودة إلى مجتمعات بدائية وكأننا في حالة ردة: "ليس صيد البشر غريبًا إلى هذا الحد.. أنا قرأت عن الموضوع كثيرًا.. هل تعلم أن صيد قبائل البوشمن كان نشاطًا رياضيًّا مسموحًا به في القرن الماضي؟.. وفي عام ١٨٧٠، انقرض آخر البوشمن من (الكيب) نتيجة لكثرة الصيد.. بالرغم من أن الصيد غير قانوني في اليوتوبيا، فإن الكبار كانوا يتجاهلونه ما دمنا لا نكشف عنه

علنًا.. وهو شعار يوتوبيا العام: افعل ما تريد طالما لم تعتد على مال باقي سكان يوتوبيا.. والأهم افعل ما تريد لكن أبقه سرًّا حتى لا تضع على عاتقنا عبء أن نبدو حازمين، ولا تضع على ضمائرنا عبء أن تتظاهر بالشفقة.. (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ٣٦).

استخدم أبناء الأغنياء صيد الفقراء كوسيلة لاختبار رجولتهم وقدرتهم على صيد البشر، وأن الحصول على جزء من جثة أحد أبناء الأغيار يُعد انتصارًا لأفراد اليوتوبيا، ودليلًا على فحولتهم وقدرتهم التي لا مثيل لها. وفي رواية "في ممر الفئران: يشرح الطريقة التي يتم بها القتل، فيقول: "يمكنك أن تجر الجثة إلى النيل وتربط فيها حجرًا.. لن يعرف الناس جميعًا أنك تخلصت من جثة، هذا طبعًا ما لم يرك رجل شرطة" (أحمد خالد توفيق، ٢٠١٦م: ٢٠٧). ويؤكد على أن أمر القتل لا ينكشف بسهوله بقوله: "في عالم من المكفوفين سوف يستغرق الأمر دهرًا إلى أن يجدوا الجثة، ودهرًا إلى أن يشكوا في الفاعل.. في هذا الوقت ستكون الأسماك قد قامت باللازم" (أحمد خالد توفيق، ٢٠١٦م: ٢٠٨). وهُنا يؤكد لنا الكاتب أن التوحش أصبح سمة بارزة من سمات الحياة المُستقبلية في العالم كله. وهو ما أكد عليه "باومان" في أن المُستقبل سوف يصبح محفوفًا بالمخاطر المُتمثلة في: الخوف والشر وغيرها من التهديدات التي يأمل أن تنتهي من العالم: "فليت حياتنا خالية من الخوف، والزمن الحديث السائل، الذي تعاش فيه حياتنا ليست خالية من الأخطار والتهديدات، بل إن الحياة بأسرها في هذا الزمن هي صراع طويل خاسر على الأرجح ضد إمكانية التأثير السلبي المُحتمل للمخاوف" (زيجمونت باومان، ٢٠١٧م: ٣١).

إذًا، فقد خلفت العولمة حياة مليئة بالخوف والقلق والاضطراب، أدت إلى زيادة مُعدلات القتل والموت والانتحار، ولا شك أن الكاتب حاول أن يجسد مظاهر الديستوبيا في النفس الإنسانية التي فقدت هويتها في مدينة يُصيبها تمزق الهوية، في مُقابل مُجتمع آخر ينتشر به القهر والظلم، ويفتقر إلى الحياة الآدمية؛ لذا ينتشر الصراع والنزاع على أبسط الموارد المُتاحة.

د. الفقر:

أشار الكاتب في الروايتين إلى قضية "الفقر" كما يُبرره الأغنياء، وكما يوضحه علاء، ابن أحد أبناء اليوتوبيا، لجابر ابن الأغيار، والذي يرى أن الفقر نتيجة غباء أبناء الفقراء، وخنوعهم، ورضائهم بما آلت إليه أوضاعهم، وفي ذلك يقول: "ليس فقركم ذنبنا! ألا تفهم بعد أنكم تدفعون ثمن حماقتكم وغبائكم وخنوعكم؟ عندما بات آباؤنا يقتنصون الفرص، كان آباؤكم يقفون أمام طوابير الرواتب في المصالح الحكومية. ثم لم تعد هناك مصالح حكومية، لم تعد هناك رواتب، أنتم لم تفهموا اللعبة مبكرًا، لهذا هويتم من أعلى إلى حيث لا يوجد قاع. ما ذنبنا نحن؟" (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ١٥٣).

وهُنا، يُحاول الكاتب أن يُقدم رؤية مُستقبلية عن المُجتمعات العربية، ويوضح الحالة التي ستُصبح فيها البلاد في ظل الركود الاقتصادي والاخفاق التنموي الذي أصاب هذه الدول، والذي بدوره سيقود إلى الثورات. ولعل ما حدث مُنذُ ٢٠١٠م لدليل على ذلك. فيقول على لسان جابر ابن الأغيار: "أنا رأيت كل شيء يتهدم.. أنذرتهم ألف مرة، لكنهم لم يصدقوا ولم يبالوا.. أحيانًا أشعر أن المصريين شعب يستحق ما يحدث له. شعب خنوع فاقد الهمة ينحني لأول سوط يفرقع في الهواء. في الماضي عندما كنت أتفلسف؛ قلت لأحد أصدقائي: "لقد جمع (بلفور) اليهود في وطن واحد وعدهم به؛ وبهذا أراح العالم منهم.." "اعتقادي أن هناك وعدًا آخر.. ثمة شخص جمع الأوغاد والخاملين الأفاقين وفاقدي الهمة من أرجاء الأرض في وطن قومي واحد هو مصر.. لهذا لا تجد في اليابان فاقد همة.. لهذا لا تجد في ألمانيا وغدًا.. لهذا لا تجد في الأرجنتين أفاقًا.. كلهم هنا يا صاحبي" (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ٨١).

وبذلك يكون الكاتب قد استطاع، من خلال النص الروائي، أن يتعامل مع الزمن بأبعاده الثلاثة: الماضي، والحاضر والمُستقبل، وقد يرجع هذا إلى رغبته في إقامة نوع من التماثل بين الفترات المُختلفة التي يحاول النص مساءلتها فنيًّا، وأيديولوجيًّا من أجل التعرف على مظاهر الديستوبيا في الروايتين، وبين الواقع الفعلي لرسم

نوعٍ من التقاطع الخطي بين زمنين: الزمن الروائي والزمن التاريخي.

كما يُسلط الكاتب الضوء على الوضع الاقتصادي السيئ، وحالة الإفقار التي يعيشها المصريون منذ عقود، فمن خلال وصفه لحياة الأغيار (الفقراء)، يرسم لنا حياة شريحة من السُكان يعيشون حياة غير آدمية، حياة تسودها الفوضى، والبؤس "سرعان ما كنا في مكان ما من هذه الخرائب.. ثمة كوخ صغير مكون من قطع خشب وأجزاء مُفككة من هيكل سيارة وصحف وأشياء غريبة جدًّا.. أزاح قطعة من المشمع لندخل ففعلنا مجبرين.. كانت حالة الكوخ من الداخل أسوأ.. هناك إطارا سيارة يستعملان كمقعدين، وهناك موقد كيروسين صغير، وهُناك أكوام من الكتب لم أرَ مثلها في حياتي.. الدليل الوحيد على وجود كهرباء، يأتي من مصباح واهن يتصل ببطارية سيارة عتيقة، وقد تم تعليق سلك المصباح على عصا تبرز من الخشب.. إضاءة لعل الظلام أفضل منها وأكثر بهجة.. إضاءة سقيمة.. إضاءة خلقت كي تنطق كلماتك الأخيرة فيها قبل أن تخرج الرغوة البيضاء من فمك وتموت" (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ٩٣-٩٤). وفي هذا المُجتمع شعر الفقراء بحالة من التيه والقلق، وفقدان الأمل والطمأنينة، يُعانون من الفقر، والجوع، والمرض.

وهكذا، يؤكد الكاتب على استمرار حالة الإفقار، وزيادة عدد الفقراء في المُستقبل، وزيادة خضوعهم وتهاونهم، وتبرير أي سلوك يسلكونه بدعوى الفقر، وقد عبر عن ذلك علاء، أحد شخصيات اليوتوبيا، بقوله: "هؤلاء القوم يتظاهرون بأنهم أحياء.. يتظاهرون بأنهم يأكلون لحمًا، ويتظاهرون بأنهم يشربون خمرًا، وبالطبع يتظاهرون بأنهم ثملوا، وأنهم نسوا مشاكلهم.. يتظاهرون بأن لهم الحق في الخطيئة والزلل.. يتظاهرون بأنهم بشر.." (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ٤٩). "الآن فقط أفهم لماذا عزلنا أنفسنا في (يوتوبيا).. لم يعد في هذا العالم إلا الفقراء، وإلا الوجوه الشاحبة التي تطل منها عيون جاحظة جوعى متوحشة.. منذ ثلاثين عامًا كان هؤلاء ينالون بعض الحقوق، أما اليوم فهم منسيون.. حتى الكهرباء والماء مشكلة فردية لكل منهم.. من استطاع أن يحصل على مولد أو

يحفر بئرًا فبها ونعمت، وإلا فعليه أن يتحمل" (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ٥٠). وفي ممر الفئران يصف الكاتب طعام الفقراء بقوله: "عند بعض الجزارين وجد كلابًا مسلوخة كاملة، لكن لا أحد يعرف هذا سوى الجزار نفسه" (أحمد خالد توفيق، ٢٠١٦م: ٢٢٠).

توقع الكاتب أن يزداد الوضع سوءًا، خاصة عندما تحدث عن حالة الاستقطاب الحاد، وتقسيم المُجتمع إلى مُجتمعين: مُجتمع الأغنياء الذي يملك كل شيء، ومُجتمع الفقراء الذي يفتقر إلى كل شيء، وفي هذا اللحظة سوف يحدث الانهيار.. ولهذا قدم الكاتب عددًا من الحقائق التي تؤكد على ذلك بقوله: "في أوائل القرن الحادي والعشرين، وفي آخر إحصاء أمكن عمله، كان هناك ٣٥ مليون مصري يعيشون تحت خط الفقر، وكذا كانت البطالة التي وصلت إلى أعلى معدلات عالمية (١٠ ملايين عاطل).. لاحظ أن ٧٨٪ من مرتكبي الاغتصاب عاطلون.. أي أن جريمة الاغتصاب هي - في الحقيقة - اغتصاب للمجتمع. دعك بالطبع من ذوبان الطبقة الوسطى التي تلعب في أي مجتمع دور قضبان الجرافيت في المفاعلات الذرية.. إنها تبطئ التفاعل، ولولاها لانفجر المفاعل.. مجتمع بلا طبقة وسطى هو مجتمع مؤهل للانفجار.. وهذا هو ما حدث بالضبط، لكن الانفجار لم يقضِ على الطبقة الثرية.. لقد نسف ما تبقى من الطبقة الوسطى، وتحول المجتمع إلى قطبين وشعبين.." (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ١٢٨). وهُنا يُركز الكاتب على رسم صورة واقعية من واقع مُجتمع عاش فترة طويلة يُعاني من القهر والظلم من بعض فئات المجتمع، وهذا ما يجعل الفقراء ينفجرون على طبقة الأثرياء تعبيرًا منهم عن غضبهم لحياة تفتقر إلى أولويات حقوق الإنسان، فتنشُب الثورة كنتيجة للاعتراض عن وضع الفقراء؛ وذلك لكون الفقر هو أكثر القضايا تعبيرًا عن قساوة الموقف، وكون الفقر هو مُفتاح كُل شر.

هـ -المرض:

ومن أوجه التماثل بين النص والواقع الاجتماعي، ما جاء في النص الروائي بخصوص بعض الأمراض أو الأوبئة التي لم يستطع الأطباء معرفة أسبابها أو

طرق علاجها، وكأن الكاتب هُنا يصف لنا فترة انتشار فيروس كورونا (كوفيد-١٩) الذي احتار الأطباء في معرفة أسبابه وتداعياته. تحدث الكاتب عن مرض دون تحديد أسبابه، وكيف أصبح وسيلة للتخلص من الأزمات الحياتية التي من المُمكن أن يُعاني منها الإنسان كُل يوم. ففي رواية "في ممر الفئران" يدخل الشرقاوي، بطل الرواية، في غيبوبة يعجز الأطباء عن معرفة سببها، وإيجاد علاجها، كما ينتظر الجميع إفاقته، حيث إنه يمكث في العناية المركزة مُنذُ فترة طويلة، حتى انتقل بشكل غريب إلى عالم الظلام، وذلك بعد سقوط النيزك على كوكب الأرض. هذا النيزك لم يدمر الكوكب، وإنما حجب عن أشعة الشمس، فأصاب الكونَ الظلامُ، ولعل هذا النيزك هو الوباء الذي أصاب الكوكب بما فيه ومن عليه. يصف الراوي الموقف بقوله: "في الصباح قال الطبيب إنها حالة غيبوبة. غيبوبة معتادة كالتي تصيب أي شخص في أي مكان. فقط قام بسحب عينات من الدم، وحملوا الشرقاوي إلى جهاز الرنين المغناطيسي، فلم يجد الجهاز شيئًا.. تحاليل الدم لم تجد شيئًا.. لا سمومَ.. لا عقاقيرَ.. لا حمى مُخيَّة.. لا نزيفًا دماغيًا.. لا فشلًا كبديًّا ولا كلويًّا" (أحمد خالد توفيق، ٢٠١٦م: ١٧). "أكد الأطباء على أن الشرقاوي في حالة غيبوبة لن يعود منها وأكد الجميع على أن جسده في عالم، إنما وعيه في عالم آخر"، وهُنا لا نغفل أن "أحمد خالد توفيق" كان مُتأثرًا بمهنته تأثرًا شديدًا، لدرجة أنه أشار إلى مخاطر المنوم التي تلحق بالمرضى في بعض الأحيان منها: "ثمة آثار جانبية لا تنتهي لتلك الأدوية كالدوار، فقدان التركيز، الغثيان، سوء الهضم، طفح جلدي، "لم نجرِ دراسات كافية على الحمل والرضاعة"، الاكتئاب، الإسهال، وهن العضلات... والعمى!" (أحمد خالد توفيق، ٢٠١٦م: ٧٠). وكأن الكاتب هنا يؤكد على المُعاناة التي سوف يلقاها الناس في المُستقبل، وهي الهروب من الواقع بتناول الأقراص المنومة، وما ينتج عنها من فقدان للوعي إشارة منه إلى حالة الغيبوبة التي تصيب البشر نتيجة فقدان اليقين والمعايير، فالمرض هنا، هو إسقاط على الحالة التي مرت بها المجتمعات، والغيبوبة هي فقدان للوعي الناتج عن هذا المرض.

هُنا أود أن أُشير إلى دور النص في استشراف المُستقبل فيما يخُص الأمراض أو الأوبئة، فلم يقتصر النص على نقد الأوضاع السلبية التي قد تشوب هذه الفترة التي كتبت فيها الرواية، وإنما تجاوز ذلك لاستشراف مُستقبلها؛ فكما ينتهي النص بوجود أزمة لا يستطيع الأطباء حلها، نجد أن الواقع أيضًا يشهد أزمة صعبة مر بها المُجتمع المصري في الفترة من ٢٠١٩-٢٠٢٠م، وهي جائحة كورونا التي قضت على مئات، بل آلاف من المواطنين، ليس هذا فحسب؛ وإنما انعكست تداعياتها على مناحي الحياة كافة. وهذا يؤكد مدى تأثر أحمد خالد توفيق بجورج أورويل في روايته "١٩٨٤م"، خاصةً شخصية "الأخ الأكبر" الشخصية الأبرز عند أورويل، وشخصية "القومندان" الشخصية الدكتاتورية في رواية "في ممر الفئران"، والتي تُمثل القوة أو السلطة في مُقابل الشخصية الضعيفة التي تميل إلى الهروب والاستسلام.

و. فوضى الجنس:

حاول الكاتب أن يُظهر طبيعة الحياة الجنسية لدى الأغنياء والفقراء، وما شابها من خلل وفوضى في الروايتين. كيف كان الجنس عند الأغنياء مصاحبًا لتعاطي المخدرات، وكيف كانت تتم مُمارسته بطُرق غير شرعية مع كل من تروق لهم من الفتيات، يصف هذا الوضع علاء بطل اليوتوبيا: "عاشرت كُل فتاة راقت لي، وجربت كُل أنواع المخدرات حتى (الفلوجستين) الجديد الوارد من الدانمرك، والذي له رائحة الليمون" (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ١٦).. وتؤكد على ذلك أمه عندما تنتهره قائلة: "ألا تفعل شيئًا آخر بحياتك سوى النوم مع الفتيات؟.. لقد صار هذا مملًّا.." ، قلت وأنا أفرد ساقي على منضدة أمامي: "ربما كنت شهوانيًّا كالخنازير.. هذا ليس ذنبي.. إنها الهرمونات" (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ١٧).

وبهذا يُعد الجنس عند هذه الطبقة، وسيلة لكسر الملل والحصول على اللذة. لهذا يُقدم الكاتب مُبررًا لمُمارسة الجنس لدى الأغنياء؛ على أنه نوع من دفع

الملل والتخلص من الروتين اليومي، كما لو كان هذا مُباحًا دون قيود مفروضة على من يقوم بممارسة الجنس، فأبناء الأغنياء يتلذذون بمُمارسة الجنس، كما لو كانوا يتناولون الطعام، فالجنس بالنسبة لهم هو شيء مُهم ودائم، ولا يزعجهم القيام به، كما لا توجد عقوبة تفرض عليهم لمنع ذلك، حيث يُعبر علاء عن ذلك بقوله: "لقد صار هذا روتينًا في حياتنا.. لا أعرف سبب الخصوبة التي رزقتني بها الطبيعة.. أبي لم ينجب سواي، ولا أعتقد أنه كان يقدر على إنجاب آخرين، لكني جئت الكون كارثة حقيقية.. ألمس الفتاة فتأتيني بعد شهر لتقول إن الأعراض زارتها.. ما من فتاة فوق الثانية عشرة هنا لم تجرب هذه الأعراض وتألفها.. والنتيجة واحدة على كل حال.. سوف آخذ من لارين شيكًا وأعطيه للفتاة.. والفتاة سوف تقصد المركز الطبي لتتخلص من هذا الكابوس.. جراحة يوم واحد وتنتهي سريعًا. فقط تضطر الفتاة للحياة بلا جنس لمدة شهرين وهذا ممل بحق" (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ١٧).

ترتبط هذه الحالة بما أطلق عليه زيجمونت باومان "العمى الأخلاقي" أو مسألة "التخبط الأخلاقي" تلك الحالة التي أصابت العالم الذي سيطرت عليه بعض القيم السلبية المتمثلة في فقدان الحميمية والعلاقات السوية، وكأن الكاتب هُنا يصدم القارئ بتقديم صورة خيالية غير مُتعارف عليها في مجتمعاتنا العربية بصفة عامة، ومجتمعنا المصري على وجه التحديد. يوكد الكاتب في موضع آخر على أن السبب وراء مُمارسة الجنس لدى الأغنياء، هو دفع الملل، والقضاء على الروتين اليومي، كما ترتبط ممُارسة الجنس بصورة وحشية، يلجأ إليها أبناء الأغنياء في مُمارسة الجنس مع أبناء الفقراء. ويتضح هذا في علاقة علاء ابن اليوتوبيا مع صفية بنت الأغيار بقوله: "كنت أنا معتادًا على العنف على كل حال؛ لذا قيدتها تقييدًا بشرائط مزقتها من قميصي القديم الذي نزعته. كممت فمها فخرست، وأراحني هذا من فض بكتريا الدرن المنبعثة من أنفاسها على كل حال.. اغتصاب مريضة سُل!.. سوف تدخل هذه الواقعة التاريخ. ربما أحكيها مرارًا للأصدقاء في جلسات الفلوجستين" (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ١٥٣).

وهُنا صور الكاتب الجنس في الرواية كأنه صورة من صور الاستغلال والقهر.

أما طبيعة الجنس في حياة الفقراء أو الأغيار فتختلف في طبيعة مُمارستها عن اليوتوبيا، فقد تكون من أجل الحصول على المال، أو لإشباع شهوة حيوانيّة، وعادة ما يكون ذلك مدفوعًا بسلطة ذكورية على النساء الفقيرات. وقد اتضح ذلك في الرواية من خلال ممارسة السرجاني، أحد شخصيات عالم الأغيار، سلطته على ابنة أخيه (سمية)، ودفع بها لمُمارسة البغاء، وتقديم جسدها كسلعة لكل من يريد في مقابل مادي. لم يشعر السرجاني - عم سمية - يومًا أنه أخطأ أو ارتكب جُرمًا يُعاقب عليه القانون، فصار البغاء أقوى من العرف أو القانون، وفي ذلك يقول أحد أبطال يوتوبيا: "هكذا مشيت وحيدًا إلى حيث الفتيات الواقفات يبحثن عن طالب شهوة، انتقيت بعيني واحدة منهن.. لم أخترها إلا على أساس قوتها الجسدية.. سيكون عليها أن تتحمل مطاردة عنيفة بالسيارات وسط الصحراء.. ربما تصير هدفًا للرماية.. فتاة بشعة المنظر، لا يميزها عن الذكر إلا فارق تشريحي واهٍ.. عريضة المنكبين، ضخمة العظام.. لو ألصقت شاربًا لصارت تشبه (مراد).. بالتأكيد هي لا تصلح.. ونظرت إلى ساعدها في شغف.. نعم.. حجمه مناسب وفيه خشونة تدل على مصدره.." (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ٥٤). لم يكتفِ الكاتب بتوضيح الأسباب التي دفعت النساء إلى ممارسة البغاء، بل أسهب في وصفهن: " تمشي مترنحة وهي تشرب من زجاجة خمر صغيرة تشبه زجاجة دواء السعال. يمكنك بسهولة أن تعرف مهنتها من ثيابها ومن خطواتها من الكدمات على ذراعيها وفخذيها.. يمكنك أن تعرف مهنتها من وجهها الملطخ بالأصباغ والنظرة الشهوانية السقيمة في عينيها وكأنها ذئب مسن. هذا كائن فقد كرامته" (أحمد خالد توفيق، ٢٠١٦م: ٣٥٧).

على الصعيد الآخر، يوضح الكاتب تحولات الحداثة التي انتشرت في الآونة الأخيرة على المُجتمعات العربية في المقطع التالي: "حالة المرح تحولت بعد قليل إلى ضرب من التحرر الفاحش لم يبلغ منتهاه في الدول العربية طبعًا، لكنه في الغرب تحول إلى عيد من أعياد "باخوس"، أو احتفال "ماردي جرا

الأمريكي.. الفتيات يركضن عاريات في الشوارع، ويمنحن أنفسهن لمن يريد" (أحمد خالد توفيق، ٢٠١٦م: ١٣١). وكأن الكاتب يُحاول أن ينتقد العالم، وما توصل إليه من مخاطر، ولكن في صورة نص روائي تخييلي.

كما لم تقتصر مُمارسة الجنس مع الفتيات غير المُتعلمات الفقيرات، ففي رواية "في ممر الفئران" يوضح الكاتب، كيف كان أستاذ الجامعة يتحرش جنسيًّا بتلميذته في الجامعة، ويتضح ذلك من المشهد الذي يصفه رامي الطالب الجامعي الذي شاهد أستاذه، وهو يقوم بذلك السلوك بقوله: "كان ما رآه هو ظهر دكتور مصطفى، وكان يطوق فتاة بذراعيه.. كانت مستندة بظهرها إلى المكتب، ومن الواضح أنه يلثم شفتيها في نهم. كانت تقاوم.. لم تبدُ على درجة من الرضا لكنها كذلك لم تبلغ درجة الصراخ. لكن الدكتور كان قد بلغ درجة من التهور العاطفي، تجعله لا يبالي، حتى لو صرخت" (أحمد خالد توفيق، ٢٠١٦م: ٢٩). هُنا وكأن الكاتب يؤكد على أن الجنس أصبح سلوكًا عاديًّا ومُباحًا في المُجتمع، حتى وإن كان داخل الحرم الجامعي الذي يُعد محرابًا للعلم".

ز. تعاطي المخدرات:

يُمثل تعاطي المخدرات صورة أخرى من صور الديستوبيا، كما أنه إشارة إلى حالة فقدان الوعي، أو الهروب من الواقع المؤلم الذي يعيشه البعض، وضرب من ضروب اللهو والتسلية وفقدان المعايير لدى البعض الآخر. والمُخدرات، كما تعكسها رواية اليوتوبيا نوعان، يرتبط كل منهما بالطبقة أو الفئة التي تتعاطاه. النوع الأول: الفلوجستين: يتعاطاه أبناء الطبقات الثرية ساكنو اليوتوبيا، لأنه مستورد وباهظ الثمن: "جربت كل أنواع المُخدرات حتى (الفلوجستين) الجديد الوارد من الدانمرك، الذي له رائحة الليمون.. يقولون إنه باهظ الثمن، لكن ما معنى باهظ الثمن؟.. هذه الكلمة نلوكها بفمنا دون أن نعرف معناها.. ما أعرفه هو أنه يأخذني بعيدًا بمجرد أن تضع قطرة منه على جلد ساعدك، وعندما ترى مثل النيران الفاتنة التي استمد منها اسمه.. تفيق بعد ساعات لتدرك أنك بحاجة للمزيد.. كمن قد بدأت تجاربي بالماريجوانا.. لا بأس

بها.. جربت عقار (إكستازي) وجربت LSD.. مشكلة هذا الأخير هي أنك بالفعل لا تضمن أن تظل حيًّا حتى تفيق.. من كل مجموعة لا بد من واحد لا يتعاطاه كي يراقب الآخرين، ويطلقون عليه اسم (حارس الرحلة).." (أحمد خالد توفيق، اليوتوبيا، ٢٠٢٣م: ١٦). ويؤكد علاء على مدى انتشار الفلوجستين في اليوتوبيا بقوله: "في يوتوبيا تسيل أنهار الفلوجستين.. إنهم يأكلونه ويشربونه.. إنهم يعرقونه.. إنه طمث النساء وبول الرجال.. صنابير الماء لا ينزل منها ماء، بل فلوجستين.. لو حدثت ثورة يومًا ما فلن تكون من أجل المساواة؛ بل من أجل مطالبة المحرومين بحقهم الطبيعي في الفلوجستين.." (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ٦٤).

أما النوع الثاني، وهو الكُلة والبانجو والصراصير وغيرها من المواد التي يسهُل للفقراء الحصول عليها لبخس ثمنها، إلا أن جابر الذي استطاع أن يسرق من علاء، أحد أبناء يوتوبيا، جرعة من الفلوجستين كي يُقدمه لأبناء الأغيار بقوله: "هل تعرفون هذا؟ .. (فلوجستين)!.. من لم يجربه بعد، فليعرف أنه شيء يختلف كلية عن (الكُلَّة) والبانجو والصراصير.. خذوه وجربوا.. نقطة واحدة على الساعد.. لا تكثروا منه يا أولاد البلهاء؛ فقد رأيت من يموت في ثوانٍ لأنه وضع نقطتين". (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ٩١). ويتضح من حديث الكاتب عن المُخدرات كيف انتشرت بين مُختلف الفئات الاجتماعية، ولعل تأكيده على أشكال التعاطي وأنواع المُخدرات بمثابة إعلان عن حالة الديستوبيا التي ألمت بالمُجتمع.

ح. السلطة الدينية:

اعتبر أحمد خالد توفيق أن السلطة الدينية في المُجتمعات الحديثة هي أحد مظاهر الديستوبيا. ففي تلك المُجتمعات يتحدث البعض باسم الدين، ويعتبرون أنفسهُم أوصياء على الناس؛ على الرغم من الجهل بتعاليم الدين الصحيحة، كما يستغل البعض الدين لتبرير بعض السلوكيات، حتى وإن كانت تتعارض مع تعاليم الدين، ككثرة الاهتمام بتشييد دور العبادة، على الرغم من عدم أهمية عددها مُقارنة بما يترددون عليها، أو التحلي ببعض مظاهر التدين كمُمارسة الطقوس الدينية

بصورة شكلية، أو عبر ارتداء ملابس تعكس صورة معينة للتدين، أو من خلال إطلاق اللحى وغيرها من الممارسات. ويرجع الكاتب ذلك إلى طبيعة التدين التاريخية لدى المصريين من ناحية، والتغيرات التي طرأت عليهم بعد الانفتاح الاقتصادي، والهجرة إلى دول الخليج من ناحية أخرى. يوضح لنا الكاتب صورة من صور التدين الظاهري في المُجتمع المصري، والتي أصبحت أزمة من أزمات المُجتمع المُعاصر، فنجد بعض فئات المُجتمع تحرص على أداء بعض الطقوس والمراسم الدينية بشكل ظاهري وليس تدينًا حقيقيًّا، فالبعض يستخدم الدين كوسيلة للتفاخر، فيؤكد علاء على ذلك بقوله: "بعض هؤلاء القوم متدين؛ لأن الدين هو الأمل الوحيد لهم في حياة أفضل بعد الموت.. لا يمكن أن يتعذب المرء طيلة حياته، ثم يموت فيتحول إلى كربون بلا ثواب ولا عقاب.. عندنا في يوتوبيا متدينون كثيرون، والطائرات الذاهبة للعمرة لا تتوقف، لكن السبب - كما أعتقد- هو خوف سادة يوتوبيا من أن يفقدوا كل شيء في لحظة. أن يصحوا ليجدوا أنفسهم وسط هذا الزحام يبتاعون شطائر من كبد الفئران، ويشربون الكحول الأحمر.. إن الأمر يحتاج إلى عدد كبير من العمرات والأدعية كي تتجنب هذا المصير الأسود.. الخُلاصة أنه من العسير اليوم أن تجد مُتدينًا بغرض التدين في حدِّ ذاته..." (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ٥٠-٥١).

ولهذا، أصبح الأغنياء يهتمون بدور العبادة، فيوضح الراوي ذلك بقوله: "منطقة دور العبادة التي بها أكثر من مسجد وكنيسة ومعبد يهودي.. البعض هنا ما زال مُصرًّا على أن يخاطب ذاتًا عُليا لا يراها" (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ٢٠). ويصف علاء أحد رجال اليوتوبيا المُتدينين بقوله: "الثراء والورع ثنائي محفور -كما يبدو- في عقول جيل الآباء المصريين منذ دهور. صورة الحاج (عبد السميع) النازل من الطائرة العائدة من الحجاز، والعباءة الواسعة غالية الثمن على كتفيه، وهو يوزع المال باليمين والشمال، وعلى وجهه ابتسامة وقورة متئدة. ورائحة عطره الثمين الفاغم، ومسبحته الذهبية.. يبدو أن هذه الصورة محفورة في أذهان آبائنا فعلًا. أنا قرأت في الأديان قليلًا، وارتبطت فكرة الزهد

بالورع في ذهني، دعك من أننا نعرف بعضنا.. كل هذا الورع لن يقنعني بأنهم لا يعاقرون الخمور، ويغتصبون نساء الأغيار ورجالهم طيلة الوقت.. لقد صنعوا ثرواتهم من لحم الأغيار، وأحلامهم، وآمالهم، وكبريائهم، وصحتهم" (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ٢٠). وهُنا قدم أحمد خالد توفيق نظرة الأغنياء للدين، ووضح كيف كانت نظرتهم للدين نظرة ظاهرية، فهم دائمون على أداء مناسك الحج والعمرة خوفًا من زوال النعم، وإنقاذًا من الكابوس الذي يُطاردهم ليلًا ونهارًا باحتمالية طردهم من مُجتمع اليوتوبيا. خاصة وإن الدين في الثقافة المصرية ارتبط تاريخيًّا بالخوف، وهو ما أوضحه الكاتب في رواية "في ممر الفئران" عندما أشار إلى حالة الهلع والخوف التي أصابت سُكان الأرض قبل اصطدام النيزك، وتخلى البعض عن ممتلكاته، وعلى النقيض الآخر اشترى البعض الكثير من المُمتلكات، واستخدم البعض الدين بصور مُختلفة تُعبر عن اختلاف ثقافة من شخص لآخر. يتضح ذلك في قول الكاتب: "انطلق الدعاة في كل مكان يذكرون الناس بالنهاية، ويدعونهم للتوبة، وكنت تسمع أصوات القرآن تُتلى في كل مكان، بينما تدوي أجراس الكنائس. كأنها مراسم جنازة الأرض التي عرفناها. العالم صار سُرادقا كبيرًا ينتظر فيه المعزون، والغريب أن هذا دفع بعض الناس لأقصى درجات التدين، بينما دفع آخرين لأعتى درجات الفجور. ليلة الشنق يطلب البعض وجبات دسمة، ويفضل البعض الزهد فلا يتبلغون بشيء. في كل يوم كان هناك من يفضل ألا ينتظر الكارثة ويفجر رأسه بمسدسه، أو يثب من فوق بناية شامخة، أو يبتلع السم...الموت الذي تختاره قد يكون أقل وطأة" (أحمد خالد توفيق، ٢٠١٦م: ٥٣).

أما الدين في حياة البسطاء والفقراء، هو دين يدعو للتسامح، دين يدعو إلى حياة بسيطة مليئة بالتواضع، فلا تعرف أن تفرق بين مُسلم وغير مُسلم، فيقول علاء في رواية اليوتوبيا: "لا يمكنك أن تعرف دين أي واحد هنا ما لم ينطق بقسم من نوع (المسيحي الحي)، أو يصلي على رسول الله، فحتى الأسماء صارت عادية محايدة لا تدل على شيء.. (فريد).. (عوض).. (عماد)..إلخ. لو

كانت هناك مزية وحيدة لمجتمعنا هذا، فهي أنه لا يعرف شيئًا اسمه التفرقة الدينية. لقد تحققت جنة المساواة الطائفية، ولكن بشكل عجيب، لم يدر بذهن أكثر الفلاسفة جموحًا.. منذ انتهى عصر البترول وبدأ عصر البايرول، ومنذ عاد المصريون من الخليج، ومنذ ساوى الفقر بين الجميع، انتهى تأثير النفط على الفكر المصري، ولم يعد أحد يعرف إن كنت مسلمًا أو مسيحيًّا إلا عندما تعلن أنك ذاهب لعمرة، أو ينكشف ساعدك ليظهر وشم الصليب.. لولا انتهاء عصر البترول لاشتعل الوضع الذي كان مرشحًا للانفجار في أوائل القرن الواحد والعشرين..." (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ٦٣). فالفقراء مُتدينون تدينًا فطريًّا، آملين في الحصول على الجنة وملاذها، فالجنة هي أمل الفقراء الوحيد، كما أن الكاتب لم يقتصر على ذكر بعض المخاطر البيئية والصحيَّة وحدها، بل تناول سلسلة كاملة من التغييرات المُتداخلة داخل الحياة الاجتماعية المُعاصرة منها: انعدام الأمن والأمان، وتراجع تأثير العادات والتقاليد، وتآكل دور الأسرة التقليدي، وشيوع التحرر، وإضفاء الطابع الديمقراطي في العلاقات الشخصية.

يُنهي "أحمد خالد توفيق" رواية يوتوبيا برؤية تشاؤمية لمصر والمصريين: "أنا رأيت كل شيء يتهدم.. أنذرتهم ألف مرة، لكنهم لم يصدقوا ولم يبالوا.. أحيانًا أشعر أن المصريين شعب يستحق ما يحدث له. شعب خنوع فاقد الهمة ينحني لأول سوط يفرقع في الهواء" (أحمد خالد توفيق، ٢٠٢٣م: ٨٠).

جُملة القول، إن الروايتين ما هُما إلا استشراف لمُستقبل مأساوي، يُنذر بالدمار والخراب، ويؤكد على اضمحلال وتلاشي الطبقة الوسطى في المُجتمع، فسوء الأوضاع الاقتصادية وضياع حقوق الفقراء في المُجتمع أدى إلى وجود ثورة تدفع بالفقراء؛ فتنتشب الثورات وينقلب الوضع رأسًا على عقب. فقد يُمكن القول بأن الروايات حملت صورًا أكثر قتامة لظواهر اجتماعية قائمة بالفعل، أو لبعض الظواهر التي توقع حدوثها في المُستقبل القريب. ومن خلال النصوص الروائية يتضح غياب الكثير من حقوق المواطنة التي يُحرم منها الشعب الفقير من قِبل بعض الفئات الأكثر رفاهية ورغدًا، وتتمثل هذه الحقوق في: الحقوق

السياسية، والحقوق الاجتماعية والحقوق الاقتصادية.

تاسعًا- مناقشة نتائج الدراسة:

حاولت الدراسة الراهنة التعرف على تجليات الديستوبيا في عملين روائيين للكاتب "أحمد خالد توفيق". وقد سعت الدراسة إلى قراءة الروايتين في ضوء نظريتي: مُجتمع المخاطر لعالم الاجتماع الألماني "أولريش بيك"، ومجموعة الحداثة السائلة لعالم الاجتماع البولندي "زيجمونت باومان". وجاءت نتائج الدراسة على النحو التالي:

١. فيما يتعلق بالكيفية التي تناول بها الأدب الروائي مفهوم الديستوبيا، تبيّن من التحليل ما يلي:

سلطت الروايتان الضوء على مفهوم الديستوبيا من خلال عدد من القضايا التي تعكس التحولات الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والبيئية التي شهدها العالم، مُنذُ أن هبّت عليه رياح العولمة. كما أن الروايتين قدمتا رؤية استشرافية لما قد يحدُث في المُستقبل. اتخذت الديستوبيا في الروايتين العديد من الأشكال تمثلت في: انتشار الفوضى، والإباحية، وتعاطي المُخدرات، وانحلال العديد من القيم الأخلاقية...إلخ، خاصةً عند الأجيال الجديدة من الشباب، وذلك من خلال تصوير حياة بعض الشخصيات من الشباب الذين يعيشون في مُجتمع سيطرت عليه الآلات، وعاشوا في عوالم افتراضية. كما أكدت الروايات أيضًا على وجود عالمين مُختلفين ومُتصارعين، نتيجة حالة الاستقطاب الحادّ التي لحقت بالعديد من المجتمعات ومنها المجتمع المصري. وحاولت الروايات هدم فكرة وجود مجتمعات مثالية، خاصةً في ظل وجود مخاطر عالمية تلقي بظلالها على الكوكب بأسره وتُهدد البشرية، وتستنزف مقدراتها وطاقاتها.

٢. وفيما يتعلق بمظاهر الديستوبيا التي رصدتها الروايتان:

تعددت مظاهر الديستوبيا في الروايتين، فحينما تقرأهما تنتابك مشاعر مُفككة، تمزج بين العطف أحيانًا، والاشمئزاز أحيانًا أخرى. وعلى الرغم من

التناقض الواضح بين السياقات الاجتماعية التي تعيش فيها شخصيات الروايتين، إلا أن كلتيهما تموج بمظاهر الديستوبيا أو الفساد. وبالرغم من ذلك فثمة ملامح للجمع بين المتناقضات في كل منهما. فكلاهُما يجمع بين الفضيلة والرذيلة، والخير والشر في آن واحد. وفي كلتا الحالتين يفقد الإنسان قيمه، وحريته وتنهار سعادته، حيث يعيش في مُجتمع فاسد يفقد فيه الناس الشعور بالذات والشعور بالآخرين، مجتمع ينتشر فيه الخوف الناجم عن القتل، والظلم، وفوضى الجنس وانتشار الأمراض والأوبئة...إلخ. وبهذا، تتفق هذه الدراسة مع دراسة (فريدة جميعان الفريناوي، ٢٠٢٣م) التي تؤكد على أن القتل والخوف صارا من الأشياء العادية والمظاهر اليومية في مجتمعات الديستوبيا، وأن أدب الديستوبيا أصبح الثيمة الأقرب للتعبير عن حالة العنف والإرهاب التي غزت الأوطان العربية. كما تتفق الدراسة مع ما ذهبت إليه السرديات التي سعت إلى وصف العولمة وتداعياتها على العالم.

لم يكتفِ الكاتب بتناول مظاهر الفساد في المجتمع، بل عرج على بعض القضايا المُتعلقة بالبيئة، ومخاطر التلوث التي توجد في بعض المناطق والأحياء الفقيرة، إلى جانب عدد من القضايا والمشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، كمحاولة مِنه لوضع استراتيجيات وخطط لمواجهة أخطار العولمة، خاصةً في ظل المخاطر، والحروب ومشكلات الإرهاب التي نجمت عن التحولات التي أحدثتها.

٣. فيما يتعلق بالظروف والكيفية الاجتماعية والسياسية، كما عكستها الروايتان:

استطاع الكاتب أن يُجسد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي اجتاحت العالم، وألقت بظلالها على مُجتمعاتنا العربية بصفة عامة، والمُجتمع المصري تحديدًا، تلك التداعيات التي تُمثل مظاهر الديستوبيا، خاصة حالة الاستقطاب الحاد بين من يعيشون داخل هذه المُجتمعات (مُجتمعات الخمسة والأربعة أخماس) كما يحلو للبعض أن يطلق عليها. وبذلك تتضح قُدرة الكاتب

في توظيف النصوص الروائية لخدمة قضايا المُجتمع، وتوضيح أهمية التواصل بين النص والسياق الذي كُتبت فيه النصوص، كما يعكس قدرة الكاتب في تشكُل الوعي الثقافي للقارئ مما يُثير خياله النقدي التأملي والسعي إلى التفسير. وهُنا قد تكون رسالة الكاتب هادفة للتحذير والتوعية بالمخاطر المُستقبلية التي قد يشهدها العالم.

٤. أما فيما يتعلق بانعكاس ملامح المدينة الفاسدة على الشخصيات:

عرض الكاتب للعديد من المُستجدات التي مكنته من تجسيد ملامح الديستوبيا على الشخصيات؛ ولعل أول هذه المظاهر غياب الوعي الذي يقود الشباب إلى صور من السلوك الفاسد (اللاأخلاقي)، والعيش في عالم اللايقين والعمي الأخلاقي، على حد تعبير "زيجمونت باومان". فقد عرض الكاتب لشخصيات مُتناقضة تعيش صراعًا بين الطاهر والمُدنس؛ فنرى فيها من هو مُنحل شاذ، ومن هو مُحافظ. ولهذا، فقد تكون الديستوبيا ما هي إلا فكرة روائية مُنطلقة من الواقع البائس الذي يعيشه أبناء المُجتمع، الذين توقعوا أن يعايشوا واقعًا مثاليًّا لا وجود له في مُجتمع يزخر بكُل أساليب الراحة والرفاهية والسعادة لكُل أفراده، إلا أنهم وجدوا أنفسهم في واقع مرير يتصارعون فيه للهروب من واقع يحاصرهُم ويخنقهم، واقع تتلاشى فيه القيم الأخلاقية. وهذا يتفق مع دراسة (موفق رياض نواف، ٢٠٢١م) التي تؤكد على أن المُجتمع المُستقبلي أصبح يسوده الفوضى والاستغلال والانتهازية؛ وهذا يعود إلى ضياع القيم والمبادئ، التي تخلى عنها الكثير من الناس، وانشغالهم بالبحث عن الثراء الفاحش، وسيطرة المادة على حساب القيم والأخلاق الإنسانية.

٥. فيما يتعلق بالدلالات النظرية لنتائج الدراسة:

انطلقت الدراسة من الأطروحات النظرية لكُل من "أولريش بيك" و"زيجمونت باومان"، تلك الأطروحات التي تناولت تداعيات ما بعد الحداثة بالتفنيد والنقد، والوقوف على تداعياتها على البشرية. وقد اتضح من تحليل

الروايتين، مدى اتساق ما جاءت بِهِ الروايتان مع تلك الأطروحات النظرية. فنجد أن الروايات حاولت أن تصور الواقع بتناقضاته ومشاكله، والمخاطر التي يُمكن أن تواجهنا في الواقع الفعلي. وهُنا يُمكن أن يُبرز هدف الكاتب وراء كتابة ذلك النوع من الأعمال الروائية، رغبة منه في دفع القارئ إلى نوع من الوعي لتحصين الذات، وتجنب "مُجتمع المخاطر" الذي تحدث عنه "أولريش بيك"، وذلك من خلال توفير الحماية لكافة فئات المُجتمع وطبقاته؛ بالإضافة إلى المُطالبة بتفعيل المسئولية المُجتمعية التي ترتبط بقيم الوعي، وإدراك المخاطر التي يتعرض لها المُجتمع المصري، وتحقيق الأمن الاجتماعي، وتلبية الحد الأدنى من الاحتياجات الأساسية لكافة المواطنين. فالكاتب لم يُخاطب وجدان القارئ بقدر ما يُخاطب عقله؛ وهذا ما دفعني إلى الاعتماد على نظريات علمية تتجاوز ما توصلت إليه الدراسات السابقة سالفة الذكر.

وبعد، فإن هذه الدراسة قد تفتح المجال لقضايا وموضوعات بحثية في مجال سوسيولوجيا الأدب، فعلى سبيل المثال، قد يكون هُناك دراسة للمُقارنة بين أدب كل من الكُتّاب الرجال والنساء، وكيفية تناولهم لقضايا المُجتمع، أو العلاقة بين النوع الاجتماعي والأدب بوجه عام، أو دراسة أثر روايات الديستوبيا على القُرّاء الشباب في المُجتمع، باعتبارهم الفئات الأكثر تعرُضًا لهذا النوع من الأدب.

عاشرًا- توصيات الدراسة، توصي الدراسة الراهنة بما يلي:

١- إجراء المزيد من الدراسات في تخصصات بينية مُختلفة، لا سيما في مجال سوسيولوجيا الأدب، وذلك لمواكبة التحولات الاجتماعية والثقافية والتكنولوجية التي تؤثر على الإنتاج والتلقي الأدبي.

٢- التوسع في دراسة الأعمال الأدبية التي تعكس التحولات الاجتماعية والمخاوف الجماعية من منظور سوسيولوجيا الأدب.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

(١) أحمد خالد توفيق (٢٠١٦م). في ممر الفئران، دار الكرمة للنشر، القاهرة.

(٢) _____ (٢٠٢٣م). يوتوبيا، ط١٩، دار الشروق، القاهرة.

ثانيًا: المراجع العربية:

(١) أحمد عبد الرزاق ناصر الحسني (٢٠١٥م). ثنائية (اليوتيوبيا- الديستوبيا) في الروائية العراقية: دراسة سيميائية، مجلة الآداب، جامعة بغداد، ع١١٢.

(٢) أسماء إبراهيم حسين شنقار (٢٠٢٠م). الرواية الديستوبية المصرية (مظاهرها ولغتها)، مجلة الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور، ع٥، ج٣.

(٣) أنتوني جيدنز (٢٠١٠م). الطريق الثالث تجديد الديمُقراطيَّة الاجتماعية، ترجمة: أحمد زايد ومحمد محيي الدين، مُراجعة وتقديم: محمد الجوهري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

(٤) أولريش بيك (٢٠١٣م). مجتمع المخاطر العالمي: بحثًا عن الأمان المفقود، ترجمة: علا عادل وآخرين، المركز القومي للترجمة، القاهرة.

(٥) جودي شديد (أكتوبر ٢٠٢٠م). نحو رؤية جيلية للديستوبيا، منشور في: أحوال مصرية جيل Z المصري، (١٥٦- ١٦٥).

(٦) جورجيو آغامبين (٢٠١٥م). حالة الاستثناء الإنسان الحرام، ط١، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة.

(٧) حسين تروش (٢٠٢٠م). العنف وديستوبيا المدينة في الرواية العربية المعاصرة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، مجلس النشر العلمي، مج٣٨، ع١٥٢.

(٨) دينا محمد عبده عبده (٢٠١٧م). خصائص الديستوبيا كنوع أدبي "رواية يفجيني زامياتين (نحن) نموذجًا"، صحيفة الألسن: سلسة في الدراسات الأدبية واللغوية، كلية الألسن، جامعة عين شمس، ع٣٣.

(٩) راوية شاوي (٢٠٢٤م). ديستوبيا الوباء الفكري في رواية "اختلاط المواسم أو وليمة القتل الكبرى" لبشير مفتي، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، الجزائر، مج١٢، ع٢، (١٢٧-١٤٠).

(١٠) رحاب صالح خليل وطلال خليفة سليمان العبيدي (٢٠٢٣ م). أثر الديستوبيا في تشكيل الزمن الروائي في الرواية النسائية العراقية (٢٠٠٣-٢٠٢٠م)، مجلة الدراسات

المستدامة، الجمعية العلمية للدراسات التربوية المستدامة، العراق، مج٥، (٢٣١٣-٢٣٣٠).

(١١) ريما الديب (٢٠٢٢م) بعض مقومات أدب الخيال العلمي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، مج ٥١، ع٦١١، (٨-٢٣).

(١٢) زيجمونت باومان وليونيداس دونسكيس (٢٠١٨م). الشر السائل: العيش مع اللابديل، ترجمة: حجاج أبو جبر وهبة رءوف عزت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.

(١٣) زيجمونت باومان (٢٠١٦م). الحياة السائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر وهبة رءوف عزت، ط١، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.

(١٤) ___________ (٢٠١٦م) الحداثة السائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر وهبة رءوف عزت، ط١، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.

(١٥) ___________ (٢٠١٦م). الحب السائل عن هشاشة الروابط الإنسانية، ترجمة: حجاج أبو جبر وهبة رءوف عزت، ط١، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.

(١٦) ___________ (٢٠١٧م). الخوف السائل، ترجمة: حجاج أبو جبر وهبة رءوف عزت، ط١، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.

(١٧) سامح فايز (أكتوبر ٢٠٢١م). الشخصية المصرية والتوظيف السياسي، منشور في: مجلة الديمقراطية، مطابع الأهرام، القاهرة، العدد ٨٤، (٧٣- ٧٥).

(١٨) سامية قدري ونيس (٢٠٢١م). سوسيولوجيا المكان من زيمل إلى ما بعد فوكو، دار سما، القاهرة.

(١٩) شيماء محمود عواض خليفة (٢٠٢٣م). جماليات التشكيل السيميائي المعرفي في ديستوبيا "أحمد خالد توفيق" رواية "في ممر الفئران" نموذجًا، مجلة البحث العلمي في الآداب (اللغات وآدابها)، كلية البنات، جامعة عين شمس، ع٧، مج٢٤، (٢٧- ٥٢).

(٢٠) عبد السلام نوير (يناير ٢٠٢٣م). مفهوم الأمن..من الأمن الوطني للأمن الشامل، مجلة أحوال مصرية، مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، ع٩١، (٢١- ٢٦).

(٢١) عبد الغاني بوالسكك (٢٠٢٢م). تحولات الحداثة والظواهر السائلة في فلسفة زيجمونت باومان، مجلة دراسات، جامعة عبد الحميد مهري قسنطينة ٢، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، مج١٣، ع١، (٣٥٧- ٣٧٦).

(٢٢) فريدة جميعان القريناوي (٢٠٢٣م). تجليات الديستوبيا في الرواية الجزائرية: رواية "وطن من زجاج" لياسمينة الصالح أنموذجًا، مجلة اللغة العربية وآدابها، المركز القومي للبحوث، غزة، مج٢، ع١، (١-١٨).

(٢٣) كريمة نوادرية (٢٠٢٢م) صورة الأمكنة الديستوبية في الرواية الجزائرية (قراءة في نماذج)، جامعة محمد خيصر بسكرة، كلية الآداب واللغات، مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، مج٢، ع١، (١٥٣- ١٦٨).

(٢٤) مجدولين علي عبد الرحمن (٢٠٢٢م) الديستوبيا في الرواية العربية المعاصرة- قراءة في رواية "في ممر الفئران"، مجلة جرش للبحوث والدراسات، جامعة جرش، الأردن، مج٢٣، ع٢، (٢١٦٩- ٢١٩٧).

(٢٥) محروس محمود القللي (٢٠٢١م). ديستوبيا الوباء في الرواية المصرية، دراسة مقارنة، مجلة كلية الآداب جامعة الفيوم، مج١٣، ع١، (٩٤٢- ١٠٣٥).

(٢٦) منى حندقها أحمد محمود (٢٠٢٣ م). الديستوبيا في رواية "وبائي بيجان" إثارة المرض للأديب ابن صفي (دراسة موضوعية)، قسم اللغة الأردية وآدابها، كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر، القاهرة.

(٢٧) منى حواس (أكتوبر ٢٠٢٠م). جيل Z والأدب: تأثيرًا وتأثرًا، منشور في: أحوال مصرية جيل Z المصري، العدد٧٨، (١٤٦- ١٥٥).

(٢٨) موفق رياض نواف مقدادي (٢٠٢١م) مظاهر الديستوبيا في رواية: حرب الكلب الثانية للروائي إبراهيم نصر الله، مجلة جامعة الحسين بن طلال للبحوث، الأردن، الملحق٤، مج٧، (٤٤٤- ٤٥٩).

(٢٩) نعيمة علي عبد الجواد (٢٠٠٩م). ديستوبيا الواقع واليوتوبيا المأمولة في رواية "آلة الزمن"، فكر وإبداع، الناشر رابطة الأدب الحديث، المجلد ٥١، (٤٧- ١١٢).

(٣٠) نهى محمد أحمد السيد (٢٠٢٠م). سوسيولوجيا المخاطر التي يتعرض لها الشباب في ظل العولمة: رؤية أولريش بيك، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة قناة السويس، ع٣٣، (١٢٥-١٧٣).

(٣١) _____ (٢٠٢٠م). سوسيولوجيا ما بعد الحداثة: زيجمونت باومان أنموذجًا، مجلة البحث العلمي في الآداب، كلية البنات للآداب والعلوم والتربية، جامعة عين شمس، ع٢١، ج٤، (٧٦-١٠٠).

(٣٢) هشام فلاح (٢٠١٤م). ترجمة: رواية الخيال العلمي: المصطلح والأسلوب رواية "الحصن الرقمي" لدان براون ترجمة فايزة غسان المنجد أنموذجًا"، رسالة ماجستير، إشراف : ناصيف العابد، قسم الترجمة، كلية الآداب واللغات، جامعة قسنطينة، الجزائر.

(٣٣) هند بنت يزيد العمري (٢٠٢١م). أدب الديستوبيا بين أحمد خالد توفيق وجورج أورويل "دراسة مقارنة"، سياقات اللغة والدراسات البينية، جامعة الفيوم، مج٦، ع١، (١٢٤-١٤٧).

ثالثًا: المراجع الأجنبية:

(1) Al Disuqui. Diaa' Ibrahim, Ahmed. Al-Shaymaa' Mohamed & Heikal. Azza Ahmed (2022). Women Resistance in Dystopian Novels: A Comparative Study of Naguib Mahfouz's Adrift on the Nile and Margret Atwood's The Handmaid's Tale, Occasional Papers Vol. 77, pp (129-151).

(2) Beck. Ulrich (2016). Varieties of Second Modernity and the Cosmopolitan Vision, Theory, Culture and Society, Vol. 33 (7-8), pp (262-263).

(3) Engel. Uwe & Stasser. Herman (1998). Globalization Risks and social Inequality: critical Remarks on the risk society hypothesis, the Canadian Journal of sociology, vol 23, No 1.

(4) Fiore. Lisa Fasola, Tosi. Laura & Fische. Pascal (2018). Gender and Genre in Young Adult Dystopia: Suzanne Collins's The Hunger Games and Lauren Oliver's Delirium, Joint Master's Degree Programme in English and American Studies.

(5) Panda. Asit (2023). The Changing Face of Dystopia: A Comparative Study of Literature in the 20th And 21st Centuries, Educational Administration: Theory and Practice, 29 (4), pp (1079-1086).